حالات نادرة

قصص غريبة
تدور أحداثها حول مراهقات كويتيات



م. عبد الوهاب السيد الرفاعي

نوفا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING

إهداء لـ ..

هديل

ويبقى الأمل

حالات نادرة

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي

العنوان

حالات نادرة

تأليف

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي



ردمك

978-99966-47-18-5

رقم الإيداع: 2013 /702

تصميم وإخراج

نوڤا بلس للنشر والتوزيع



نوڤا بلس للنشر والتوزيع
NOVA PLUS FOR PUBLISHING AND DISTRIBUTING
www.novapluskw.com

مكتبة | 752
سُر مَن قرأ

حالات نادرة

قصص غريبة تدور أحداثها حول مراهقات كويتيات

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي



تنويـه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول:

أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها

مقدمة ضرورية

أجلس وحيدا في غرفتي والساعة تتجاوز الواحدة فجرا بقليل .. إنه الوقت المفضل لدي للتفكير والكتابة دون أن يقطع سيل أفكاري أي عامل خارجي .. فلا اتصال هاتفي مفاجئ .. ولا زحمة الحياة في الشوارع والتي تشعر بها حتى وإن كنت جالسا في البيت .. ولا أشعة الشمس المملة التي تقتل لدي كل إحساس بالغموض .. إنه الهدوء الذي يجعلك تكاد أن تشعر بنمو الأعشاب ونشوء الكواكب والتغلغل إلى مسام أوراق الأشجار.

شعري لا يزال مبللا قليلا بعد الحمام الساخن الذي أخذته للتو .. لأجلس بعدها على الفراش مع كوب الشاي الأخضر الذي تتصاعد منه الأبخرة بلا توقف .. وأنظر إلى رزمة الورق الموجودة أمامي عازما البدء بالكتابة .. فما زلت عاجزا عن اللجوء إلى جهاز الكمبيوتر حين يتعلق الأمر بمشاعري الشخصية وتجارب حياتي .. القلم وحده قادر على مساعدتي لتفريغ أفكاري ومخاوفي .. وذكرياتي.

أمسك القلم وأفكر بتردد وبشيء من القلق .. هل أنا أول طبيب نفسي يكتب تجاربه للناس؟! .. هل فكرة كتابة المذكرات أصبحت مكررة وسخيفة بعد أن سبقني إليها الكثيرون؟!! .. هل ستصدقون ما سأكتبه لكم من قصص غريبة وأحداث مذهلة؟؟! .. هل ستتهمونني بالكذب أو ربما بالجنون كوني طبيبا نفسيا وقد تأثرت ربما بالأجواء التي أعيشها كل يوم مع المرضى؟؟! .. أسئلة ومخاوف كثيرة لا أملك الإجابة عليها.

لكني رغم كل شيء .. قررت أخيرا طرح تلك الوساوس خلفي والبدء بالكتابة .. لأنني على يقين أن أجواء مذكراتي مثيرة للغاية وستصيبكم بدهشة بالغة .. كما أن القصص التي ستقرؤونها مختلفة تماما عن أي قصص أخرى .. وستجدون بين طياتها متعة حقيقية قلما تجدونها في أي كتاب آخر!!!.

والآن قبل أن نبدأ .. أرجو أن تسمحوا لي أن أعرفكم بنفسي وبطبيعة عملي .. أعلم أن هذا سيكون مملا .. لكن .. لا بد أن تعرفوا شيئا عن مستضيفكم .. وإلا فلن تشعروا بالألفة أثناء قراءتكم لمذكراتي .. خاصة أن جميع القصص التي يحويها هذا الكتاب تقوم على أكتاف شخصي المتواضع.

وعلى كل حال .. لا يوجد الكثير ليقال .. ولا داعي حتى أن أخبركم باسمي .. ربما لأنني اعتدت أن يناديني الجميع -بما فيهم أقاربي- بلقب (دكتور) حتى بت لا أسمع اسمي كثيرا على لسان الناس .. المهم أنني طبيب نفسي كما ذكرت في البداية .. أبلغ الـ 34 من العمر .. أعمل في مستشفى الطب النفسي منذ حوالي 5 سنوات.. نعم .. ما زلت طبيبا حديث التخرج نسبيا كما ترون.. ولا أشبه الأطباء الذين امتلأ شعرهم بالشيب ووصلوا إلى أرذل العمر وتجدهم طوال الوقت في المؤتمرات العلمية.. ولكن .. ما رأيته في السنوات الـ 5 تلك.. يفوق ما رآه أي طبيب نفسي مخضرم في أي مكان في العالم!!!.. أنا واثق من ذلك.

إنني أعيش مغامرات مذهلة بصفة مستمرة في مستشفى الطب النفسي الذي أعتقد أن 99% من سكان (الكويت) لم يقوموا بزيارته من قبل .. فهذا المكان لا يمتلئ عادة بالمراجعين على عكس جميع المستشفيات الأخرى التي تذهب إليها وتنتظر ساعات وربما أياما كي يأتي موعد فحوصاتك.. والأسباب كثيرة وراء ذلك .. منها خجل عامة الناس من

زيارتنا وكشف أدق أسرارهم أمام الطبيب النفسي الذي هو في النهاية مجرد رجل غريب يقابلونه أول مرة .. منها تلك الفكرة الشائعة أن الطب النفسي بأكمله قد وضع أصلا للطبقة المترفة والأثرياء .. أو لعلاج المجانين فقط.

ربما يجهل عدد لا بأس به من الناس روعة الطب النفسي - وأكثر ما يخيفني فيه بنفس الوقت - إذ لا توجد أرضية محددة نقف عليها على عكس أفرع الطب الأخرى .. فتجدني أتساءل طوال اليوم وأنا جالس في مكتبي عن هوية ونوعية الزائر القادم .. هل سيكون مدمن مخدرات؟! .. أم قاتلا يتصنع الجنون؟!! .. هل ستكون فتاة تعاني الاكتئاب؟!.. أم مراهقا يعيش وساوس تدمر حياته؟!! أم .. إلخ.

فمستنقع النفس البشرية كالبئر العميق لا يمكنك أبدا استكشافه بالكامل والوصول إلى قاعه .. خاصة مع عدم وجود أجهزة تساعدنا على قياس أي شيء بطبيعة الحال .. فكيف نقيس الوسواس القهري؟! .. كيف نعرف الاكتئاب؟!.. ماذا عن علم نفس الخوارق (الميتافيزيقيا)؟! .. هل له وجود بالفعل؟!! .. وما هي حدوده؟!! .. إلى أي مدى قد يصل

التخلف العقلي؟! .. كما ترون .. الأمر بأكمله يعتمد على الجلسات العلاجية ومدى كفاءة الطبيب النفسي لتقييم حالة المريض.

هذا كل ما يتعلق بعملي .. أما بخصوص حياتي الشخصية.. فأنا أعزب حتى لحظة كتابة هذه السطور .. وما زلت أبحث عن فتاة الأحلام وآمل في العثور عليها يوما .. أعيش حاليا في بيت العائلة بالطبع .. وهي لا تختلف عن أي عائلة أخرى.. فلا يوجد ما يستحق الحديث بشأنها .. كما أنني أصغر إخوتي الذين تزوجوا واستقروا جميعا وأبناؤهم حاليا في المرحلة الجامعية .. لذا فمسؤولياتي العائلية محدودة للغاية.. ولا يوجد من أهتم لأمره سوى والدتي – أطال الله في عمرها – بعد أن توفي والدي منذ مدة طويلة.

أما هيئتي الخارجية .. فأنا متوسط القامة .. مقبول الملامح.. نحيل الجسد إلى حد ما .. أبدو صغيرا في السن إلى حد ما أيضا .. لذا أرتدي نظارة دقيقة تمنحني شيئا من هيبة الطب ولأبدو أكبر سنا أمام زملائي الأطباء .. باختصار .. هيئتي

الخارجية لا تختلف عن أي شاب كويتي ولا أعتقد أنها ستثير انبهار أي فتاة.

والواقع أنني عشقت الطب النفسي منذ بدايات سن المراهقة.. ووجدت أنه يختلف عن جميع أفرع الطب الأخرى لأن مهمته تحسين جودة حياة الإنسان وليس فقط تأخير الموت كما تفعل أفرع الطب الأخرى.. كما أنه لا يتعامل مع المرض.. بل مع المريض نفسه.

لقد تمنيت أن أكون طبيبا نفسيا حتى أفهم نفسي قبل كل شيء.. وأعرف لماذا أخشى الظلام والأماكن المأهولة بالبشر التي لا نراها إلا صباحا .. كالمدرسة ومدينة الملاهي .. فأتساءل بخوف حقيقي .. ترى كيف ستكون هذه الأماكن ليلا؟؟! .. ولماذا أخشى الأشياء غير المكتملة؟؟!!.. عقب سيجارة .. سماعة تليفون مرفوعة .. تلفزيون لا يشاهده أحد .. إلخ.

لكني لم أجد الإجابات على تلك الأسئلة ولم أفهم نفسي حتى الآن .. بل وعلى العكس تماما .. وجدت أن مخاوفي

تتزايد يوما بعد يوم .. خاصة بعد أن عرفت أسرار الكثير من البيوت في كل مرة أستمع فيها إلى شكاوى المرضى ومآسيهم.. مما زعزع كثيرا البقية الباقية من ثقتي بنفسي ومن شعوري بالأمان في هذا العالم.

فتجدني أتحدث طوال الوقت بأسلوب العالم ببواطن الأمور وبهدوء الرجل الحكيم وهيبة الطبيب .. لكن.. لو واجهني أحدهم بمخاوفي وحاول كشف القناع الزائف الذي أختبئ وراءه .. فربما سأنهار عندها باكيا على الأرض .. فأنا خاو من الداخل .. وأحتاج إلى تقدير الآخرين حتى أظل واثقا بنفسي .. وهذا ينم عن ضعف واضح في الشخصية مع الأسف الشديد.

ما محور هذا الكتاب؟؟! .. حسنا .. سأتحدث عن قضية تثير فضول كل قارئ .. سأتحدث عن المراهقات في (الكويت).. وهو موضوع شائك حساس تتحفز له مقصات الرقابة كما تعلمون .. المشكلة أنني في معظم الأحيان التي أستمع فيها إلى قصة غريبة .. أجد أن من ترويها لي وتعيش أحداثها فتاة في سن المراهقة .. ربما لأن المراهقات عموما يعشن تحت

ضغوطات كثيرة في مجتمعنا الشرقي .. وأخطاءهن لا تغتفر على عكس أقرانهن المراهقين الذين يملكون هامشا كبيرا من الحرية .. فلا نستغرب أبدا أن نرى المراهق يتحدث مع صديقاته طوال الوقت عبر الهاتف ويتواصل معهن أمام مسمع ومرأى - وربما تبريكات - أفراد العائلة .. في حين تثور ثائرة الجميع ويكاد الأب أن يصاب بنوبة قلبية، ويتحدث الشقيق عن العار إذا ما عرفوا أن ابنتهم المراهقة على علاقة بشاب!!!.. وهذا ما يجعل معظم المراهقات يعشن في زوايا مظلمة من مجتمعنا .. وتكون لديهن أسرار عديدة .. وقصصهن مذهلة لا تصدق.. لذا فمذكراتي التي بين أيديكم.. هي انتقاء لأغرب الحالات والقصص التي مرت علي على لسان بطلاتها المراهقات.

و .. لا يوجد ما يقال بعد كل هذا .. لنبدأ الآن مع 6 قصص منفصلة تدور أحداثها حول 6 مراهقات تتراوح أعمارهن بين 11 – 20 عاما حيث جلست مع كل منهن على حدة في مكتبي.. فلعبت دور المستمع أحيانا .. ودور المنقذ أحيانا أخرى .. وربما دور الغبي في مرات قليلة .. فما كنت أسمعه منهن لا يصدقه عقل من تجارب يغلب عليها الرعب

والغموض والدراما والخيال في مزيج عجيب لم أصدق أنني سأعيشه لحظة بلحظة.

لنقلب الصفحة أو ننظر إلى اليسار .. ولنقرأ معا تلك القصص التي ستجعل أسوأ كوابيسنا تتحقق .. وتجعل صرخات بطلاتها المراهقات تحرك خيالنا جميعا .. وكأن حياتهن من عالم آخر .. بل عوالم أخرى لم أعرف بوجودها قبل أن أرتادها أخيرا .. إنهن حالات غريبة بالفعل .. حالات نادرة!!!.





جدتي تخيفني كثيرا

تحكيها: سحر

عزيزي القارئ ..

أنا طبيب نفسي كما تعلم .. ورجل علم بكل تأكيد.. ولكن لا يمكن أن يكون الخوف حولي في كل مكان دون أن أصاب بالعدوى .. هذا ما حدث حين انتهيت من قراءة هذه القصة.. إنها مخيفة بالفعل .. حتى إنني لم أنم ليلتها من شدة الخوف.. بل وما زلت أحرص على أن أغطي جسدي بأكمله أثناء النوم لأشعر ببعض الأمان .. لكني أرتجف رغم ذلك في كل مرة أسمع فيها مواء القطط في الخارج .. أو عند سماع أي صوت مجهول آخر في غرفتي .. فقد عشت خوف بطلة القصة لحظة بلحظة دون شك حتى أصبت بعدوى الخوف.. أحيانا يصاب الناس بالرعب لدرجة مخيفة تصيبنا نحن بدورنا بالرعب.

قصتنا هذه عن مريضة اسمها (سحر) .. وهي فتاة تبلغ الـ 16 من العمر .. حيث أشرف شخصيا على

علاجها منذ مجيئها وإقامتها في المستشفى الشهر الماضي .. والواقع أنني لم أطلب منها كتابة قصتها .. بل سأنقل لكم مذكراتها تماما كما كتَبتْها .. فقط مع بعض الإضافات التي قمت بها بنفسي والتعديلات البسيطة .. حتى تخرج لكم المذكرات كقصة متكاملة تشرح لكم كل شيء .. وسيكون لي تعليق في النهاية على أحداثها.

فلتقرؤوا قصة (سحر) كما كتبتها هي .. ولنرى إن كانت ستسبب لكم الخوف كما فعلت معي.



نعم .. كما هو واضح من عنوان قصتي .. أعترف أنني أخشى جدتي كثيرا .. ولا أعلم في الواقع إن كان يجب أن ألومها على ذلك أم ألوم نفسي .. لكن .. أعتقد أنني لو وصفتها لكم فستشعرون نحوها بذات الشعور .. إنها امرأة غامضة بالفعل .. صامتة أغلب الأحيان على عكس العجائز وولعهم المعتاد بالثرثرة .. تمتلك شخصية قوية للغاية و(كاريزما)* قلما تجدها عند من هم في مثل

* الكاريزما هي وصف يطلق على الشخص الذي يتمتع عادة بالشخصية القوية الطاغية والقدرة على القيادة والتأثير الإيجابي على الآخرين.. ومن ثم إقناعهم بأفكاره وكسب ثقتهم وولائهم .. والكلمة تأتي من كلمة (Charisma) الإنجليزية التي ترجع بدورها لأصل يوناني وتعني (الهدية) أو (التفضيل الإلهي) .. وقد تحدث بعض الباحثين عن الصفات التي يجب أن يمتلكها الشخص ليكون ذا (كاريزما) .. وهي كالتالي: (عدم تقليد الآخرين -الثقة بالنفس- عدم الانفعال مهما كانت الأسباب -التحكم بالمشاعر- التزامن بين لغة الجسد والكلام -التفكير قبل الحديث- التكلم عن دراية واقتناع -الصبر- معاملة الناس باحترام).. ويرى البعض أن (الكاريزما) هي في واقع الأمر صفة كارثية وليست ميزة .. لأنها تخفي عيوب الإنسان ولا تجعل الناس تنتبه لها.. وربما في هذا الكلام شيء من الصحة .. خاصة إذا علمنا أن أغلب الزعماء الذين دمروا أنفسهم ودمروا بلدانهم كانوا يمتازون بـ(كاريزما) غير عادية .. مثل (هتلر) و(موسوليني) و(صدام حسين) .. إلخ.

سنها .. أما شكلها فهو ما يزيدها غموضا ورهبة .. فقد حرق الشيب رأسها حتى بات شعرها أبيضَ بأكمله .. وتساقطت معظم أسنانها .. كما أن وجهها قد امتلأ بالتجاعيد التي لم تزدها جمالا وطيبة كما يحدث مع معظم العجائز .. بل وعلى العكس تماما .. إذ ازدادت قبحا ورهبة!!!.

ورغم كل هذا .. لا تزال بصحة جيدة للغاية .. فلا تحمل أيا من الأمراض التي يحملها كبار السن عادة سوى أنها تعرج قليلا بفعل عيب خلقي .. حتى إنها ترفض تماما فكرة وجود خادمة .. فتقوم بتنظيف البيت وحدها بإصرار غريب دون مساعدة أحد.

وما يزيدني خوفا منها غرابة أطوارها .. فكثيرا ما كنت أشعر بها تدخل غرفة نومي في وقت متأخر جدا من الليل .. وتقوم بتفريغ سلة المهملات في كيس كبير تحمله معها .. ثم تمسح المرآة الموجودة في غرفتي بهدوء وآلية غير مفهومة.. حتى إنها تمشي حول فراشي أحيانا دون سبب واضح .. وتصدر منها أثناء ذلك حشرجة مخيفة تسبب لي الكوابيس.. بل وأشعر

بها أحيانا تفتح أدراجي وتتجسس علي .. نعم .. إنها تفعل كل هذا في غرفتي أثناء نومي .. وكأنها لا تضع في اعتبارها على الإطلاق إمكانية استيقاظي واكتشاف ذلك!!!.

أعتقد أنها لا تكترث أصلا .. خاصة أنني لا أجرؤ على الاعتراض ولا حتى مناقشتها بما تفعله .. لأنني أخشاها كثيرا كما أخبرتكم .. وبت أشعر أن خوفي منها يتجاوز الخوف العادي .. وربما يصل إلى درجة الفوبيا!!!.

ورغم أنني أعيش معها وحدي تحت سقف واحد .. إلا أننا لا نتبادل الحديث كثيرا .. ربما لأنها صامتة كالقبر في أغلب الأوقات .. وهذا ما جعل علاقتي بها باردة للغاية .. حتى إنني لا أذكر أنها عاملتني يوما بحنان أو حتى بقسوة أثناء طفولتي.. فقط كانت تهتم بي وتحيطني برعاية كاملة لا تتجاوز ضروريات الحياة .. تماما كما نفعل مع حيوان أليف نحتفظ به في منزلنا .. مع الفارق الشاسع بالطبع كوننا نستأنس الحيوان الأليف ونحيطه ببعض الحب والاهتمام!!!.

المشكلة أنني لا أجد مكانا آخر ألجأ إليه .. فأنا يتيمة .. كما أنني الابنة الوحيدة لوالديّ رحمهما الله اللذين توفيا منذ

سنوات طويلة في حادث مروري كنت أنا الناجية الوحيدة منه.. فانتقلت بعده لأعيش مع جدتي في بيتها بمنطقة (الفيحاء) وأكون تحت سيطرتها المطلقة .. حتى إنها ظلت تمنعني تماما من زيارة صديقاتي وزميلات الدراسة كونها تخشى علي وتفعل هذا لمصلحتي على حد قولها.

لذا فقد كبرت منعزلة عن العالم لا أحتك بأحد سوى جدتي .. ولا أخرج من البيت إلا للذهاب إلى المدرسة .. أو في فترات قليلة للغاية لا تتجاوز مرة أو مرتين في الشهر .. إذ كانت تسمح لي بالذهاب بين الحين والآخر إلى السوق المركزي لشراء حاجيات البيت الرئيسية .. أو أن أطلب سيارة أجرة للذهاب إلى أحد الأسواق لشراء بعض الثياب والاحتياجات النسائية.

وبسبب هذه الحياة المملة التي أعيشها .. والتي لم تتجاوز التحدث عبر الهاتف مع زميلاتي في المدرسة ومشاهدة التلفزيون .. أو الجلوس أمام شاشة الكمبيوتر الذي أصبح جزءا لا يتجزأ من عالمي .. وبسبب عدم وجود حافز مهم للدراسة .. رحت أهمل دراستي شيئا فشيئا .. حتى رسبت

أكثر من مرة .. وخرجت أخيرا من المدرسة .. لأعيش حياتي بعد ذلك بأكملها في البيت معتمدة على مساعدة الحكومة من خلال راتب والدي -رحمه الله- الذي يدخل شهريا في حسابي البنكي بطبيعة الحال.

وعلى عكس باقي الفتيات في مثل سني .. لم تكن لي أي مغامرات عاطفية من أي نوع رغم الفرص العديدة التي كانت تسنح لي من خلال مواقع التواصل الاجتماعي أو حتى في مرات خروجي النادرة عندما أشعر بنظرات الإعجاب التي تلاحقني من الشباب .. ولا أعلم في الواقع إن كان هذا بسبب جمالي .. أم أنهم يبحثون عن أي فريسة مهما كان مستوى جمالها .. ربما يكون السبب الثاني هو الأصح!!!.

لكن .. هناك دائما مرة أولى .. ومغامرة أولى .. خاصة لفتاة في مثل سني .. فقد التقيت بذلك الشاب أثناء ذهابي إلى السوق المركزي منذ أكثر من شهر .. لا أدري لماذا شعرت باهتمام تجاهه.. ربما بسبب كلماته المعسولة الرقيقة التي خلبت لبي .. أو بسبب نظراته الآسرة .. لا أعلم .. لكنه كان جريئا

بحق حين توجه ناحيتي بكل أدب وثبات أثناء توقفي لوضع بعض السلع في عربة التسوق.. وراح يدغدغ مشاعري ويقسم لي أنه لا يعرف ما جرى له حين رآني.. وأنه ليس معتادا على معاكسة الفتيات بهذه الصورة.. لكنه لم يتمكن من منع نفسه من إبداء إعجابه بي .. و .. وجدت نفسي شيئا فشيئا أقع في حبائله .. حتى خرجت من السوق المركزي .. ورقم هاتفه النقال محفوظ في ذاكرة هاتفي.

كانت هذه أول تجربة ومغامرة لي من نوعها .. لذا فقد خرجت من السوق المركزي وأنا أرتجف بالكامل .. شاعرة أنني مقبلة أخيرا على الإثارة .. وعلى كسر الجمود الذي أعيشه في حياتي وسيطرة جدتي التي تخنق أنفاسي!!!.

أتذكر جيدا أنني لم أنتظر طويلا يومها .. فما إن حل الليل وتأكدت من نوم جدتي .. حتى دسست نفسي تحت اللحاف.. ورحت أفكر قليلا وللمرة الأخيرة وأتساءل إن كان يجب الاتصال بذلك الشاب أم أتجاهل الأمر بأكمله .. لكنني في النهاية رضخت لمشاعري الباحثة عن الحب والرومانسية.. رضخت للهرمونات التي تسرح وتمرح في دمي كوني ما زلت في سن المراهقة .. وضغطت زر الاتصال أخيرا.

كانت لحظات جميلة لم أعشها من قبل حين وضعت سماعة الهاتف بالقرب من أذني .. أترقب الرد على اتصالي وقلبي يخفق بعنف .. قبل أن أسمع أخيرا صوته الواثق وهو يرد على الاتصال متوقعا أنه مني كما قال فيما بعد .. لنبدأ بعدها تعارفا بسيطا أشعرني بلذة ما بعدها لذة .. قبل أن نتحدث في خصوصيات أكثر.. ويبدأ هو في الحديث عن حياته الشخصية.

لقد كان الشاب عاديا للغاية ولا يختلف عن باقي الشباب.. إذ يدرس حاليا في كلية الحقوق .. ويعيش بطبيعة الحال بين والديه وأفراد أسرته .. ولم يكن هناك أي شيء مميز من ناحيته.. أما أنا .. فقد كنت متحفظة إلى حد ما في حديثي معه .. إذ لم أخبره عن جدتي وغرابة أطوارها .. فقط أخبرته بابتعادي عن الدراسة واكتفائي بالراتب الشهري الذي أحصل عليه من الحكومة .. وأنني يتيمة الأبوين أعيش حياة مملة للغاية لا يوجد فيها أي نوع من الإثارة التي قد تحتاجها أي فتاة في مثل سني.

لذا راح يتحدث بحماس ويحاول إقناعي أن أفعل شيئا مهما في حياتي .. أي شيء قد يقتل الروتين الممل الذي أعيشه.. وأن

أبدأ بممارسة هواية ما .. أو ربما مشروع تجاري.. خاصة أن الكثير من بنات وشباب اليوم لديهم أعمالهم الخاصة ومشاريعهم الصغيرة .. و .. بعد ساعتين أو أكثر من الحديث المتواصل معه حول شتى المواضيع .. أنهيت المكالمة بعد أن شعرت بالنعاس.. وبعد أن أخبرني بأدب شديد أنه مضطر لإنهاء المكالمة أيضا كونه سيستيقظ مبكرا للذهاب إلى الكلية.

أنهيت المكالمة وقلبي يخفق بعنف شاعرة ولأول مرة في حياتي أن ذلك الشاب قد حرك المياه الراكدة المحيطة بي من كل جانب وأن هناك من يستمع إلي أخيرا .. وربما سيشاركني أسراري ويتواصل معي .. إذ لم أكن أحب الحديث عن حياتي الشخصية مع زميلات الدراسة .. خاصة أنني ابتعدت تماما عنهن مؤخرا بعد رسوبي المتكرر وفصلي من المدرسة .. أعلم أنها مكالمة واحدة وعلاقة قد تنتهي في أي وقت .. لكني لم أكترث .. فعلى الأقل هناك حافز في حياتي الآن .. هناك دافع!!! .. هكذا كنت أقول لنفسي.

أفكر بهذا الكلام وأنا أقترب شيئا فشيئا إلى الغرق الكامل في عالم الأحلام والساعة تتجاوز الثانية صباحا

ربما .. قبل أن أستيقظ فجأة وأتسمر في مكاني!!! .. هناك من يفتح باب غرفتي .. إنها .. إنها جدتي مرة أخرى .. يا إلهي .. كم أخشى تلك اللحظات المخيفة.. إنها واحدة من زياراتها الغريبة التي تقوم بها في وقت متأخر أثناء نومي .. وأنا في الواقع ما زلت أجهل ما تفعله في غرفتي إلى جانب تنظيف سلة المهملات ومسح سطح المرآة .. إذ لم أجرؤ أبدا على سؤالها .. إنني فقط أشعر بها تهيم حول فراشي وكأنها تمشي دون هدى .. وأحيانا تقوم بتفتيش الغرفة كما ذكرت سابقا!!!.

أحاول بتوتر شديد أن أجعل أنفاسي منتظمة وألا أقوم بأي حركة قد تثير ريبتها وتكشف لها أنني مستيقظة.. ثم.. شعرت بها تقترب مني .. أو تقترب من فراشي إن صح التعبير.. وتمسك بهاتفي النقال الذي وضعته على المنضدة الصغيرة بالقرب مني .. هذا غريب .. إنها لم تفتش في هاتفي النقال من قبل .. اللعنة .. أرجو ألا تكشف وجود رقم ذلك الشاب في هاتفي .. وجود رقم غريب غير مسجل في ذاكرة الهاتف قد يثير ريبتها!!! .. ترى ما الذي تفعله الآن؟!!.. إنها لا تزال

واقفة إلى جانب الفراش حيث أستمع إلى أنفاسها المتقطعة وحشرجتها .. قبل أن أشعر بها تخرج من الغرفة .. لأتنفس الصعداء أخيرا!!!.

هـذا لا يطاق .. لا يمكن أن أخشى جدتي إلى هـذا الحد مهما كانت غريبة الأطوار .. فلا توجد أي مشكلة لو دخلت إلى غرفتي ووجدتني مستيقظة .. لكن .. لا يوجد ما أستطيع فعله .. إنني أخشاها بجنون .. شكلها .. تصرفاتها .. كل ما فيها يخيفني.. لا أذكر أنني أردت محادثتها بشيء إلا وأجد نفسي متلعثمة متوترة .. فأتراجع عن ذلك وأعزل نفسي مرة أخرى في غرفتي.. أعترف أنني حاولت مرات كثيرة منذ طفولتي أن أكسر ذلك الخوف المرضي .. وأخرج من غرفتي لفتح أي موضوع للحوار معها ومحاولة التعرف على خباياها وإضافة نوع من العاطفة المعتادة بين الجدة وحفيدتها .. لكني أعجز تماما .. الفوبيا تشتعل في كل ذرات جسدي وتجبرني على التراجع!!!.

في صباح اليوم التالي .. دخلت جدتي إلى غرفتي دون استئذان أثناء جلوسي أمام شاشة الكمبيوتر .. وراحت تنظر إلي بجمود دون أي مشاعر .. حتى إنني انكمشت تماما في مقعدي..

لتقول بصرامة كعادتها كلما تتحدث في أي موضوع:

- لقد عرفت أنك كنت تتحدثين عبر الهاتف مع شاب ما مساء أمس .. لا تنكري .. أعلم أنك حاولت خداعي بإيهامي أنك نائمة .. لكنك لا تستطيعين خداعي أبدا .. فقد بحثت في ذاكرة هاتفك النقال عندما دخلت غرفتك وأخذت رقم ذلك الشاب .. واتصلت به قبل قليل!!!!.

قلت بصوت مبحوح:

- مـ .. مـ .. ماذا؟!! .. ماذا قلت له؟!!.

ردت بصرامة مقيتة:

- لقد أمرته بالابتعاد عنك طبعا وإلا سيكون حسابه عسيرا!!!.. استمعي إلي جيدا .. لن يوجد الأمان في حياتك إلا هنا في منزلي ومعي أنا .. لا تمنحي ثقتك لأحد في الخارج .. أنا أفوقك سنا بمراحل وأعلم جيدا كيف يمارس الناس كل أنواع الغش والخداع.. وأعرف كيف أحميك حتى من نفسك .. إنك بمأمن معي .. تذكري أنك

لم تحققي النجاح في دراستك .. ولا تمتلكين أي مؤهلات من أي نوع .. وأنك تعيشين في بيتي وتحت سقفي!!!.. أنا صمام الأمان الوحيد في حياتك.

قلت بتلعثم واضح:

- ولكن يا جدتي .. سأتزوج يوما دون شك .. لا شك أن هذا اليوم سيأتي!!!.

ردت بالجملة الخالدة التي ترددها كل أم .. وربما كل جدة:

- لو كان ذلك الشاب اللعين يريدك فباب البيت مفتوح له.. وليس عن طريق الهاتف .. فليتقدم لخطبتك إذا!!!.

لم أجد ما أقوله أمام كلامها هذا .. فخرست تماما .. لكنها ظلت تتحدث وتنصحني للحظات بدت لي دهرا .. قبل أن تستدير أخيرا وتخرج من غرفتي!!! .. يا إلهي .. أنا لا أملك أي خصوصية في حياتي .. إنني أخشى حتى من غلق باب غرفتي بالمفتاح .. لأنها لن تسمح بذلك وستغضب مني لو فعلت .. ولا أعلم كيف سيكون عقابها حينها.

لكن .. تبددت تلك الخواطر من ذهني عندما تذكرت كلامها عن اتصالها بذلك الشاب وتهديدها له .. وشعرت بلوعة حقيقية خوفا من انتهاء علاقتي به رغم أنني لم أتحدث معه سوى مرة واحدة .. لا أدري لماذا .. هل لأنه أول شاب أرتبط به في حياتي؟!! .. هذا بالطبع إن جاز إطلاق كلمة (ارتباط) على مكالمة هاتفية واحدة .. إلا أنني في النهاية .. وجدت نفسي أتجه إلى هاتفي النقال .. وأزدرد لعابي بصعوبة بالغة .. لأتصل به مرة أخرى .. وأفاجأ به يرد بصوت مضطرب للغاية:

- أرجوك يا (سحر) .. أرجو أن ننسى ما حدث بيننا أمس.. لقد اتصلت جدتك منذ قليل وهددتني باللجوء إلى الشرطة .. وقد.. وقد بدا صوتها مخيفا للغاية .. المعذرة .. لا أقصد إهانتها .. ولكن هذا ما شعرت به .. وأنا لا أريد التورط بمشاكل من أي نوع!!!.

قاطعته هامسة بلوعة ورجاء شديدين:

- أعرف .. أعرف .. لقد أخبرتني بذلك للتو .. لكن .. أرجوك .. لا تستمع إليها .. أرجوك لا تتركني .. لا أستطيع الابتعاد عنك!!!.

رد بشيء من الاستغراب:

- عفوا .. نحن لم نتحدث سوى مرة واحدة .. لا يوجد أي نوع من الارتباط بيننا .. لماذا تتحدثين وكأننا نعيش قصة حب طويلة الأمد؟؟!.

كان محقا دون شك .. لذا فقد قلت له صراحة:

- المعذرة .. لكنك أول شاب في حياتي .. وأنا لم أعرف طعم الارتباط قبل هذه المرة .. وأشعر بالراحة النفسية حين أتحدث معك .. إنني بحاجة إليك .. أرجوك.

سكت طويلا .. ثم حسم أمره وطلب مني أن أحدثه أكثر عن نفسي وعن حياتي الخاصة .. فقد شعر – على حد قوله – أن هناك الكثير من الغموض المحيط بي وبجدتي .. و .. هذه المرة .. قررت أن أخبره بكل شيء على أمل أن يرأف بحالي ولا يتركني .. فذكّرته مرة أخرى بأنني يتيمة ولم أكمل دراستي .. وأعيش على إعانة الحكومة .. وأخبرته أيضا عن جدتي وطريقة حياتي معها .. وكم هي امرأة مخيفة في كل ما تفعله ولا أبالغ لو قلت إنها تمارس السحر!!! .. نعم .. قلت له هذا صراحة!! .. لقد كنت أتحدث بانفعال دون أن أشعر

بنفسي.. حتى إنني بكيت كثيرا أثناء كلامي .. وأخبرته أنني أحبه بحق وأحتاجه إلى جانبي!!.

بالطبع أثار هذا الكلام استغرابه كثيرا .. لكنه رغم كل شيء.. بدا صادقا للغاية حين قال بتردد وكأنه يريد تجنب المشاكل:

- سأكون واضحا في كلامي .. لا توجد لدي أي نية في الزواج إن كان هذا ما تظنينه .. فنحن صغار في السن.. وكان سبب تقربي منك في السوق المركزي إعجابي بجمالك فحسب.. أريد أن أكون قريبا منك .. أريد أن أكون على تواصل معك .. لكن ليس إلى درجة الارتباط.. أرجو ألا يضايقك كلامي .. ثم إن جدتك .. إحم إحم.. بصراحة تخيفني!!! .. وها أنت قد أكدت كلامي للتو.. إنك تعيشين معها في بيت واحد طوال هذه السنوات .. لكنك ما زلت تخشينها رغم ذلك .. فلا تلوميني لو شعرت ذات الشعور ناحيتها.

عند هذه النقطة تحديدا .. تغيرت نبرة صوته فجأة .. وراح يتحدث بحماس ويطلب مني أن أدافع عن نفسي وعن حريتي واستقلاليتي .. وألا أقلل من احترام جدتي بنفس الوقت ..

وهي معادلة صعبة بالطبع ومن شبه المستحيل تحقيقها بالنسبة لي .. لكن .. لا أعلم لماذا أشعرني كلامه هذا بشيء من الراحة.. ربما لأنني عرفت أخيرا أنني فتاة طبيعية .. فلست وحدي التي تخشى جدتي وتجدها غريبة الأطوار .. إنه يخشاها كذلك .. يا إلهي .. هناك سر غريب يتعلق بهذه المرأة!!! .. سر مخيف أشعر أنه من الأفضل ألا أحاول كشفه أصلا!!!.

المهم أنني أنهيت مكالمتي معه بعد أن أقنعته بالاستمرار في علاقتنا هذه دون أي التزامات .. ووعدته بأن أتخذ كل التدابير في المرة القادمة كي لا تشك جدتي بشيء ولا توقعه في مشاكل هو في غنى عنها.

أمسكت بعدها بهاتفي النقال بكلتا يدي .. ورحت - بحزم شديد - أمسح تاريخ المكالمة .. نعم .. لقد تأثرت بكلامه .. وقررت أن أقاوم جدتي .. هذا الشاب هو النور الوحيد في حياتي ولن أدعه يرحل عني .. أعرف أنه لا يفكر بالارتباط وربما تركني الآن ليتحدث مع فتاة أخرى .. هذا احتمال وارد كما تعلمون .. لكن .. ربما سأكسب قلبه مع مرور الأيام .. هناك أمل .. هناك هدف في حياتي على الأقل .. هكذا كنت أردد لنفسي!!!.

مرت بعدها بضعة أيام لم يطرأ فيها أي جديد .. سوى أنني وجدت نفسي قادرة أخيرا على خداع جدتي .. إذ لم تتغير عادتها في التسلل إلى غرفتي في أوقات متأخرة من الليل والتفتيش بين حاجياتي .. لكنها لم تجد ما يثير الشك .. فلم أكن أحتفظ بأي شيء يدل على علاقتي بذلك الشاب.. حتى إنني حرصت على محو رقم هاتفه تماما من ذاكرة هاتفي.. لأحتفظ به في ذاكرتي أنا فقط.

كان هذا قبل أن أكتشف أنني حمقاء إلى درجة لا تصدق وأنني لا يمكن أن أخدع جدتي أبدا!!! .. لقد تبينت لي تلك الحقيقة عندما كنت أجلس معها في غرفة المعيشة نتناول العشاء بصمت مهيب كعادتنا دائما ودون أي حوارات عائلية كما يحدث على الأرجح في كل بيت .. قبل أن أراها تنظر إلي بعين ثاقبة مخيفة وبشكل مفاجئ.. لتقول بصرامة:

- هل تظنين أنك تخدعينني أيتها الحمقاء؟!! .. هل تظنين أنني لا أعلم بأمر علاقتك بذلك الشاب؟؟! .. لقد احتفظت برقمه منذ ذلك اليوم عندما اتصلت به وهددته بعدم

مطاردته لك .. لم أود أن أتسبب بأي مشكلة حينها على أمل أن تعي ما تفعلين وتعودي إلى صوابك .. لكن يبدو أنني كنت مخطئة .. فقد اتصلت به مرة أخرى واعترف لي - تحت التهديد - أنه ما زال على اتصال معك.. إنك غير قادرة على تحمل المسؤولية .. سآخذ منك هاتفك النقال.. لست بحاجة إليه .. وحتى مسألة خروجك يجب أن أفكر بشأنها .. ربما لا تحتاجين إلى الخروج من البيت أصلا!!!.

انتفضت بقوة أمام هذا الكلام .. حتى عجزت تماما عن النطق للحظة .. هذا مستحيل .. مستحيل .. هذه العجوز خبيثة إلى حد لا يصدق .. قلت لها بشفتين مرتجفتين وقد انهارت تماما فكرة خداعها ومقاومتها:

- ولكن يا جدتي .. أنا لا أخرج كثيرا أصلا .. خروجي من البيت نادر للغاية .. لا يمكن أن أقضي الوقت كله في البيت.

ردت بحنق:

- لست أنت من تقررين ذلك .. أنا صاحبة الكلمة في هذا

البيت .. سأتصل بإحدى شركات التوصيل كي تجلب كل ما نحتاجه إلى البيت .. هذا أسهل وأفضل بكثير من ذهابك إلى السوق المركزي بنفسك .. سأسمح لك فقط بالذهاب إلى جهاز السحب الآلي لتسحبي من رصيدك ما يكفينا طوال الشهر.

كيف تعرف جدتي كل هذه الأمور؟!! .. امرأة في سنها لا يمكن أن تعرف أمورا كهذه؟!! .. هذا غريب للغاية .. تنحنحت وقلت بتردد وبصوت مبحوح:

- ولكن يا جدتي .. أنا من أصرف على البيت من خلال راتب والدي رحمه الله .. ألا أستحق الحصول على شيء من الحرية نظير ذلك؟!! .. ألا أستحق أن أعيش حياتي كباقي الفتيات؟!!.

قالت بعصبية وكأنها تستنكر جرأتي هذه:

- منذ متى تجادليني؟!! .. أنت تصرفين على البيت لكنك تقيمين في بيتي أنا مجانا!!! .. وراتبك لا يكفي للسكن في مكان آخر حتى وإن سمحت لك بذلك .. أما بخصوص

ذلك الشاب .. فسأحذره للمرة الأخيرة باللجوء إلى الشرطة لو حاول الاتصال بك مرة أخرى .. سأرحمه هذه المرة فقط لأنني أعرف أنك أنت من اتصلت به ورجوته أن يستمر في علاقته معك .. في المرة القادمة سأنهي مستقبله.. هل هذا مفهوم؟!!!.

رددت بلوعة وأنا أبكي:

- لا .. لا .. أرجوك .. لا ذنب له بأي شيء .. إنه شاب مسالم ومهذب للغاية لم يسيء إلي من قبل!!!.

ردت بحزم مخيف غاضب:

- الموضوع انتهى .. اذهبي إلى غرفتك!!!.

أطرقت برأسي إلى الأرض .. ثم توجهت باكية إلى غرفتي وقد بدت فكرة الموت حينها لا بأس بها على الإطلاق!!! .. إنني أعيش اكتئابا حقيقيا .. حياتي هذه ليست طبيعية .. إن جدتي ستدمرني.. ستنهي مستقبلي .. إلى متى أخشاها بهذه الطريقة الغريبة؟!! .. ليتني أملك الجرأة لمواجهتها .. ليتني!!!.

جلست في غرفتي دقائق قليلة .. قبل أن أسمع صوتها المخيف مرة أخرى وهي تطلب مني أن آتيها بهاتفي النقال!!!.. اللعينة.. كم أكرهها .. إنها لا تنسى شيئا .. قلت هذا لنفسي وأنا أخرج هاتفي النقال من أحد أدراج مكتبي .. لأذهب به إلى غرفة المعيشة.. ثم وضعته على المنضدة أمام جدتي دون أن أتفوه بحرف .. وأعود بعدها إلى غرفتي شاعرة بانكسار ما بعده انكسار .. وأن حياتي لا معنى لها.

لا أنكر أن تلك الفكرة القديمة قد خطرت في ذهني مرة أخرى.. أي فكرة؟!! .. فكرة الهرب طبعا .. ظننت هذا مفهوما!! .. إنني قادرة على تحمل مسؤوليات الحياة بعيدا عن جدتي .. فأنا أستلم إعانتي من الحكومة .. وربما أستطيع العثور على شقة بسعر مناسب لأعيش حياتي كباقي الفتيات .. يجب أن أفكر جديا بذلك .. نعم .. سأهرب .. سأقضي الأيام القادمة برسم خطة كاملة للهرب والعثور على مكان أقيم فيه .. إنني أمام عالم متكامل هنا .. أمام الانترنت .. سأجد إجابات على كل أسئلتي دون شك .. أعلم أن المهمة لن تكون سهلة.. فمن يدري .. ربما ستقوم جدتي بإبلاغ الشرطة عني إذا ما هربت من

البيت لتتم إعادتي إليها بالقوة .. لكن.. هناك دائما مخاطرة في أي نقلة جديدة لحياة أي إنسان.. وأنا مستعدة لتحمل نتائج تلك المخاطرة .. خاصة أنني أموت ببطء كل يوم بسبب هذه الحياة الرتيبة .. إنني أعيش بلا مستقبل .. بلا طموح .. بل وبلا حاضر .. كل هذا بسبب جدتي وتسلطها وطغيانها.

كنت أردد هذا الكلام لنفسي وأفكر بموضوع الهرب .. قبل أن أشعر بالنعاس .. وأدس نفسي تحت اللحاف عازمة على البدء برسم خطة الهرب في الغد .. لأغرق بعدها في سبات عميق مطمئنة للقرار الذي اتخذته.. و .. تماما كما تظنون.. فقد أيقظني شيء ما .. حركة مريبة في غرفتي في ساعات مبكرة جدا من الفجر .. ربما في الثانية صباحا!!! .. أحدهم يسير حول فراشي .. تطلب الأمر ثوان قليلة ليعود إلي وعيي وأدرك أن جدتي في غرفتي تمارس عادتها المخيفة.

أشعر بها الآن تتجه إلى سلة المهملات لتقوم بتفريغها .. ثم تضع كيس القمامة على الأرض لتأتي بالقرب مني وهي تلهث بصوت مبحوح مخيف للغاية .. حتى إن أمعائي تقلصت من هول الموقف!!!.. وسمعت صوتها الذي زاده الظلام رعبا

ورهبة.. وهي تقول هامسة:

- إياك أن تفكري بالهرب!!!! .. أعلم أي أفكار حمقاء قد تطرأ في ذهنك .. فأنا أعرف كيف أكشف أسرارك.. لكن.. لن يكون هذا في مصلحتك .. صدقيني .. إن جدتك هي أفضل من يهتم لأمرك في هذا العالم .. حتى وإن ظننت أنني ظالمة أو قاسية .. لكن .. هناك أمورا كثيرة أعرفها عن هذا العالم ولا تعرفينها أنت لصغر سنك!!!.

كدت أن أتصنع النوم العميق حتى أهرب من مواجهتها كعادتي.. لكن الفضول قتلني قتلا هذه المرة بعد ما سمعته منها.. كيف عرفت بأمر نيتي في الهرب؟!! .. هذا مستحيل!!!.. فأزلت اللحاف عن وجهي وعلامات الاستغراب تغزو ملامحي بوضوح .. لأرى نور غرفة المعيشة الخافت يتسلل إلى غرفتي بسبب بابها المفتوح.. ووجه جدتي الجامد ينظر إلي.. كدت أن أرد عليها .. لكني عجزت تماما.. إذ سقط قلبي بين قدمي أمام منظرها المخيف .. فرغم أن الظلام كان يغطي معظم ملامحها .. إلا أن هذا زادها رهبة دون شك .. أحيانا ما لا نراه بوضوح يخيفنا أكثر مما نراه واضحا جليا .. لكن..

الأهم من كل هذا هو كيف؟؟!!!.. كيف عرفت جدتي بنيتي في الهرب؟!! .. مهلا .. مهلا .. يا إلهي .. هل هو ذلك الشاب؟!! .. لا شك أنه هو .. أتذكر أنني حدثته عن نفسي وعن أدق أسراري .. وأخبرته عن مشاكلي مع جدتي ورغبتي في الهرب من البيت وتأجيل تلك الفكرة باستمرار!!! .. لا شك أنها هددته لإخبارها بكل أسراري.

يا لها من طريقة متسلطة قذرة لتفرض سيطرتها علي!!!.. إنني أكرهها .. أكرهها للغاية .. أكره تلك العجوز اللعينة .. إنها جدتي بيولوجيا فقط .. لكني لا أشعر بأي انتماء عاطفي أو عائلي ناحيتها .. بل أتمنى موتها الآن!!! .. ليتني أقدر على مواجهتها .. ليتني!!! .. إنها ذكية للغاية ومن الحمق أن أفكر بالكذب عليها بعد الآن.

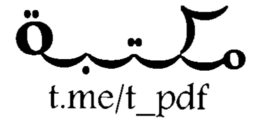
لم أتمكن من الرد على كلامها بعد أن شعرت أنها تسبقني دائما وتعرف كل نواياي وأسراري .. لذا فقد هززت رأسي إيجابا .. وقلت لها بعينين دامعتين وقد رفعت الراية البيضاء استسلاما:

- أنا .. أنا آسفة يا جدتي .. لن أخرج أبدا عن طاعتك .. سـ.. سـ .. سامحيني.

لم تقل شيئا جراء هذا الكلام .. بل هزت رأسها موافقة وكأنها تقول:

- هذا الجيل لا تنفع معه سوى الصرامة والقسوة!!!.

تركتني بعدها لتخرج من الغرفة .. أما أنا فقد قررت أخيرا أن أرفع راية الاستسلام بالفعل وأستمع إليها .. وألا أفعل ما يغضبها على الإطلاق!!! .. أريدها أن تكون راضية عني .. لا أحتمل غضبها .. إنني أخشى جدتي .. أخشاها كالموت ذاته .. سأطرد من ذهني كل فكرة قد تغضبها .. هذا عهد أقطعه على نفسي من الآن فصاعدا .. عهد لن أنقضه أبدا!!!!.



عزيزي القارئ .. القصة السابقة قد تبدو لك غريبة للغاية.. ولكن .. هناك أمورا كثيرة مهمة نجهلها حول بطلة القصة وجدّتها .. أمورا لم تكن تعرفها (سحر) نفسها .. ففي اليوم التالي .. ولو قدر لنا أن نشاهد ما يدور في ذلك البيت.. فسنجد أن (سحر) تعيش حياتها بصورة قد لا تثير الريبة للوهلة الأولى .. لكن .. راقبوا حياتها جيدا .. نعم .. تماما كما ترون!!! .. إنها تتجه يوميا في ساعات متفرقة إلى ذلك الدولاب .. وترتدي ثوبا قديما لا تلبسه سوى العجائز.. ثم تضع على رأسها باروكة بيضاء .. مع بعض المساحيق على وجهها حتى تبدو كامرأة عجوز مخيفة المنظر!!!! .. لتبدأ بعدها بالتصرف وكأنها امرأة عجوز .. بالضبط .. هو ما سيتبادر إلى أذهانكم!!! .. فـ(سحر) تعاني من مرض نفسي خطير .. تعاني من ازدواج الشخصية* .. إنها تتقمص شخصية جدتها مرات

---

* يعتبر ازدواج الشخصية (Multiple Personality Disorder) اضطراب نفسي خطير للغاية .. حيث يظهر من خلاله المريض بأكثر من شخصية.. بل وقد تتعدد الشخصية المبتدعة من المريض لتصل إلى مائة شخصية في بعض الحالات المعقدة .. ويحدث الانتقال أغلب الأحيان من شخصية لأخرى فجأة وخلال ثوان أو دقائق على أسوأ تقدير .. وقد تكون الشخصية الأخرى تناقض تماما شخصية الإنسان الحقيقية كأن =

عديدة كل يوم .. وتتخيل بعدها أحاديث وحوارات كاملة تتم بينهما .. تماما كما رأينا في القصة .. فعقلها يعيش في عالم آخر .. عالم ترسم من خلاله وجود شخص آخر في البيت إلى جانبها .. شخص يحاورها ويفرض رأيه عليها دائما كما تبين لنا في أحداث القصة*.

= تتحول الفتاة الرقيقة إلى أخرى قاتلة مثلا. ويعتقد خبراء علم النفس أن هذا المرض النفسي غالبا ما ينتج بسبب الإيذاء الجسدي للإنسان في طفولته .. أو الخلافات الزوجية الشديدة التي تخيف الطفل كثيرا وتشعره أن مصيره بأكمله مهدد كونه يعتمد في حياته كلية على والديه.. أما علاج المرض فعسير للغاية ويعتمد على جلسات طويلة من العلاج النفسي لتفريغ الصدمات النفسية المكبوتة. وجدير بالذكر أن هذا المرض النفسي نادر الحدوث .. وغالبا ما يكون تشخيصه صعبا وخاطئا ويتم ربطه بالتلبس بالجن .. مما يؤدى إلى توجه أهل المريض إلى جهات أخرى طلبا للعلاج .. إلا أن هناك حالات يمكن تشخيصها بسهولة في بعض الظروف الاستثنائية كما في قصتنا الحالية.

* أظهرت التجارب العلمية أنه إذا أخذنا شخصا ما وأوصلنا دماغه إلى جهاز لقياس نشاط الدماغ .. ثم طلبنا منه النظر إلى جسم محدد .. فسينتج من دماغه نشاط محدد في منطقة محددة من المخ .. وإذا طلبنا منه إغلاق عينيه وأن يتخيل نفس الجسم الذي رآه .. فسينتج عندها نفس النشاط الدماغي وفي نفس المنطقة المحددة من المخ .. مما جعل العلماء يطرحون سؤالا بالغ الأهمية .. ما الذي يرى؟؟!! .. هل هو الدماغ أم العين؟!!.

هناك قاضٍ يعيش في أعماق (سحر) .. وهو يحكم عليها دائما ويراقب تصرفاتها ويحاول أن يحميها من نفسها .. وهو شبيه بضمير الإنسان الذي يحاول من خلاله تجنب الأخطاء والموبقات .. إن ما يحدث لبطلة قصتنا هو نتاج عقد نفسية طويلة سببها على الأرجح خلافات والديها التي لم تتوقف ليوم وفاتهما .. بل إن الحادث المروري الذي تسبب بوفاة والديها كان قد حدث بعد خلاف نشب بينهما في السيارة .. مما أدى إلى بكائها وصراخها كونها طفلة صغيرة لا يتجاوز عمرها آنذاك الـ10 سنوات .. وهذا ما جعل والدها يفقد تركيزه ويرتكب ذلك الحادث الذي أودى بحياته وحياة والدتها .. ليتركاها وحيدة مع جدتها وهي العائل الوحيد لها.

لقد تفاقمت مشكلة (سحر) النفسية عند انتقالها للإقامة مع جدتها التي كانت بدورها امرأة صارمة قاسية متسلطة .. مما حرمها من الحنان والاستقرار الذي قد يحتاجه أي طفل .. وهكذا كبرت الفتاة .. والشعور بالضعف والضياع يسيطران عليها .. قبل أن تتوفى جدتها في البيت .. نعم .. هل ترون تلك الحديقة الصغيرة الموجودة في ساحة البيت الخلفية؟!!..

لقد دفنت (سحر) جدتها هناك بعد أن توفيت أمامها منذ بضع سنوات ولم تتقبل فكرة موتها .. فعاشت في تناقض صارخ تسبب بتفاقم اضطراباتها النفسية .. فجدتها هي العائل الوحيد لها كما علمنا .. لكنها وفي نفس الوقت .. امرأة صارمة قاسية جدا .. لذا فقد انتحلت (سحر) شخصية الجدة .. ثم راحت تراقب نفسها وأفعالها من خلال تلك الشخصية.

كيف عرفْت كل هذا؟!! .. بعد قراءة مذكرات (سحر) وبعد جلسات مكثفة من العلاج النفسي والتنويم المغناطيسي.. لأعرف في النهاية أنها فتاة مزعزعة نفسيا وأنها مصابة بمرض ازدواج الشخصية.

أما عن كيفية وصول (سحر) إلى مستشفى الطب النفسي.. فقد كان هذا من خلال الشاب الذي كانت تتواصل معه عبر الهاتف .. فهو من أبلغ عنها بعد أن تحدثت إليه (سحر) بشخصية الجدة أكثر من مرة .. إذ شعر حينها أن صوت الجدة غريب للغاية ومخيف جدا ..

وما زاد شكوكه هو ما أخبرته به (سحر) حين كشفت له كل أسرارها وتحدثت عن خوفها الشديد من جدتها وتسلطها الغريب على حياتها وتصرفاتها المريبة .. فأقدم الشاب على مغامرة مذهلة .. حيث زار بيتها منتحلا صفة مندوب التعداد السكاني وادعى أنه قد جاء لاستكمال بيانات التعداد!!!.

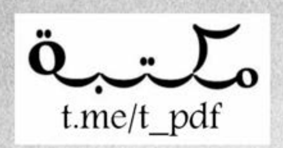
لحسن الحظ أن (سحر) كانت تتقمص حينها شخصية جدتها .. فشعر الشاب أن هناك شيئا ليس على ما يرام .. وأن الفتاة لا تبدو أبدا كامرأة عجوز .. فلا يمكن أن تخدع أحدا تلك المساحيق غير المتقنة والباروكة البيضاء!!!.

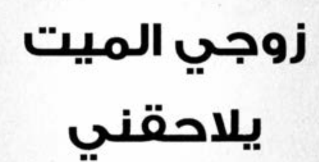
لذا لم يكن من العسير عليه أن يعرف أن هناك شيئا مريبا يحدث في هذا البيت .. فاتصل بالشرطة حال خروجه .. وأخبرهم بما رآه .. ليتم بعدها اكتشاف كل شيء .. والقبض على الفتاة وإيداعها مستشفى الطب النفسي.

وها هي (سحر) الآن في المستشفى تحت إشرافي المباشر وقد أخبرتني بتفاصيل طويلة من حياتها بعد جلسات من التنويم

المغناطيسي والعلاج النفسي .. لكنها تحتاج إلى المزيد .. ربما إلى بضع سنوات أخرى حتى تعود بعدها كفتاة طبيعية.

إن قصة (سحر) غريبة للغاية كما ترون .. بل ومخيفة في الكثير من تفاصيلها .. وتثير تساؤلات طويلة حول الأمراض النفسية .. وطبيعة الإنسان .. والمآسي التي قد يراها في حياته وتساهم في تدمير شخصيته .. إنها واحدة من القصص التي تجعلني أنزوي أكثر وأكثر عن هذا العالم المخيف .. عالما أن ما أكتشفه يوما بعد يوم هو غيض من فيض .. وأنني كلما ظننت أنني وصلت إلى قاع النفس البشرية .. أكتشف أنه ليس سوى طبقة سطحية من قاع آخر .. وأعماق أخرى.





زوجي الميت يلاحقني

تحكيها: هبه

عزيزي القارئ .. قصتنا هذه موحشة وغريبة للغاية .. حتى إنها تجعلني أتساءل .. هل ستكون أغرب قصة تقرأها في حياتك؟!! .. ربما ستكون كذلك .. فهي من تلك القصص التي ستحشد علامات الاستفهام في رأسك إلى درجة أنك لن تفكر بشيء آخر بعدها غير ما ستقرأه الآن!!!.

لقد كنت في بادئ الأمر على ثقة تامة أن من تروي القصة هي فتاة مختلة عقليا .. أو على الأقل تمر بمشاكل نفسية عديدة بسبب ما عانته من ظروف قاسية بحق .. مما سبب لها حالة بارانويا* حقيقية جعلتها تختلق قصة كهذه .. لكني فوجئت بعدها بأحداث غريبة لا تصدق!!! .. بل ولا يمكن أن أصدقها لو رواها لي شخص آخر .. حتى إنني بدأت أشك بسلامة عقلي عندما صعقت بالنهاية الغريبة لأحداث القصة.. نهاية ستسبب لكم صدمة هائلة!!! .. فقط تابعوا معي وستعرفون ما أعنيه.

---

* البارانويا (Paranoia) هو تعبير عن حالة مرضية نفسية يتوهم خلالها الشخص أنه مستهدف.. وأن الآخرين يتآمرون حوله لتدميره .. مع تصاعد شعوره بالعظمة والتفوق على الآخرين بنفس الوقت .. وقد يختلق المصاب بهذا المرض قصصا محبكة ومكتملة بحيث تبدو منطقية للغاية ومقنعة للآخرين.

لقد بدأ كل شيء بزيارة مفاجأة من فتاة في الـ 19 من العمر - كما أخبرَتني فيما بعد - برفقتها شاب يكبرها بقليل.. حيث بدت عليهما علامات التوتر والقلق بشكل واضح .. خاصة الفتاة .. إذ كانت تائهة منهارة تماما بسبب مشكلة ما بكل تأكيد.. وقد انعكس هذا بوضوح على مظهرها الخارجي.. فقد بدت لي زائغة النظرات .. وشعرها منسدل بإهمال على كتفيها .. كما كانت ترتدي ثيابا رياضية مهملة.. وكأن لا وقت لديها للاهتمام بنفسها .. مما أشعرني بشيء من عدم الارتياح رغم الحالات العديدة التي تمر علي يوميا في المستشفى .. فأحيانا شعور الناس بالخوف والقلق ينتقل إليك تلقائيا دون أن تفهم السبب .. حتى وإن كنت طبيبا نفسيا!!!.

لقد ظننت في البداية أنهما متزوجان حديثا ويعانيان من تلك المشاكل التي يعاني منها أي زوجين عديمي الخبرة .. أو أن يكونا على الأقل مخطوبين .. لكن .. اتضح أن الشاب الذي يرافقها هو في واقع الأمر ضابط شرطة مرتديا ثيابا مدنية ويعمل في المباحث الجنائية .. وأنه غير مرتبط بالفتاة بأي علاقة رسمية .. أو ربما هو حب من جانب واحد!!! .. من جانبه هو بالطبع .. إذ بدا لي أنه مهتم كثيرا لأمر الفتاة وبشكل

ملفت للانتباه .. فكان يتصرف بحزم وطريقة تمثيلية واضحة وكأنه يفخر بأنه هو من يحميها .. يحميها من ماذا؟!!.. لا أعرف .. لكن تصرفه يوحي بذلك فحسب!!!.

استقبلتهما بترحاب شديد وحفاوة كعادتي .. بينما تلقيا استقبالي هذا بفتور واضح ينم عن وجود مشكلة ما بكل تأكيد .. حتى إنني طلبت منهما الجلوس قبل أن أنتبه إلى أن الفتاة ترتجف بالكامل.

جلسنا جميعا .. وساد المكان صمت مطبق ثوان قليلة.. قبل أن أسألهما عن سبب الزيارة .. فتنحنحت الفتاة التي أخبرتني أن اسمها (هبه) .. وقالت بضياع:

- لم أجرؤ على الذهاب إلى المخفر كي لا أسبب أي فضيحة لعائلتي ولنفسي .. فأسهل تفسير لقصتي اتهامي بالجنون!!!.. لذا لم أعرف لمن ألجأ في البداية .. ثم اقترحَت علي أقرب صديقاتي أن أتصل بشقيقها الضابط عله يتمكن من مساعدتي .. فأعطتني رقم هاتفه بعد أن أخبرَتْه بقصتي وأوصته كثيرا بالاهتمام بي والاستماع إلي.. لكن .. لم يكن هناك ما يستطيع الضابط بدوره فعله.. وهو أمر متوقع

بصراحة .. إلا أنه اقترح أن يأخذني لزيارة طبيب نفسي .. ربما تكون المشكلة نفسية على حد قوله .. وها نحن الآن في مكتبك.

هز ضابط الشرطة رأسه بما يوحي أن كل ما قالته الفتاة صحيح تماما .. فسألتها باستغراب:

- لماذا تخشين أن يتهمك رجال الشرطة بالجنون؟!!! .. أنا لا أفهم شيئا!!!.

ردت بتوسّل:

- دكتور .. أعرف كيف سيبدو كلامي .. لكن أرجوك أن تصدقني .. زوجي .. زوجي يريد قتلي!!!.

اتسعت عيناي استغرابا وأنا أنظر إلى ضابط الشرطة الذي لم ينطق بحرف منذ دخوله .. وسألتها بحذر:

- لماذا يريد قتلك؟؟!!.

ردت بأسى:

- لا يوجد سبب واضح .. إنه يريد قتلي فقط لأنه وغد

ومجرم .. إنه رجل حقير إلى درجة لا تصدق .. كتلة من الشر الخالص!!!.

كان كلامها غريبا .. فسألتها مرة أخرى:

- ولكن .. نحن لا نعيش في غابة .. لم أسمع من قبل عن أحد يريد قتل زوجته فقط لأنه شرير ولأن هذا يروق له!!!.

ردت بعصبية:

- أعرف .. أعرف .. كلامك صحيح إلى حد ما .. فدائما ما يضع الإنسان لنفسه أخلاقا وحدودا .. حتى العصابات والمافيا ومهربي المخدرات بينهم شفرات أخلاقية يحترمونها لأنه نظام جماعي يعتمد فيه الواحد منهم على الآخر .. لكن زوجي الوغد كان شيئا جديدا على البشرية.. لم أعرف في حياتي إنسانا بهذا الشر المبتذل!!!.

سألتها في حيرة:

- مهلا .. لم تخبريني حتى الآن .. أين هو زوجك أصلا ولماذا لا تكون هناك وساطة بين أفراد عائلتك لحل أي خلاف بينكما؟؟! .. قد يحل هذا المشكلة بأكملها!!!.

وكأن سؤالي أصابها بالصميم .. إذ تبادلت الفتاة نظرات متوترة مع ضابط الشرطة .. ليتنحنح وينطق أخيرا وهو يزدرد لعابه:

- إنه .. إنه .. إنه ميت يا دكتور!!!!.

نظرت إليهما ببلاهة .. قبل أن أردف بحزم:

- أي هراء هذا .. المعذرة .. أنتما تعطياني مقتطفات من القصة.. أرجوكما .. أريد أن أفهم القصة كاملة حتى أتمكن من مساعدتكما.

نظرت الفتاة إلى ضابط الشرطة طويلا .. قبل أن تحسم أمرها وتتحدث وقد امتلأت عيناها بالدموع فجأة:

- لقد بدأ كل شيء عندما تقدم ذلك الوغد لطلب يدي من والدي .. فقد كانت مفاجأة حقيقية حينها .. خاصة أنني من مستوى اجتماعي أقل منه بكثير .. لكنه أبدى إعجابه الشديد بجمالي وأخلاقي كما كان يدعي .. المشكلة أنني كنت غبية .. فلم أفكر حينها إلا بوسامة الرجل وثروته .. وظننت أن هذا ما سيصنع زواجا سعيدا!!! .. المهم أننا تزوجنا وانتقلت للإقامة معه بطبيعة الحال في فيلته الفاخرة

في منطقة (الشامية).. قبل أن يبدأ مسلسل التعذيب بأسابيع قليلة بعد الزواج.. ضرب مستمر .. إهانات لا تنتهي.. كدمات في أماكن متفرقة من جسدي ما زال بعضها موجودا حتى اليوم!!!.. لقد كنت أسخر كثيرا في الماضي من مسلسلاتنا العربية وذلك المنظر الذي يتكرر كل مرة عن الزوج السكير أو متعاطي المخدرات وهو قادم إلى البيت في وقت متأخر ليضرب زوجته .. لكني فوجئت أن هذا ما كان يحدث معي فعليا .. حتى إنني فكرت كثيرا بالانتحار.. فالوغد كان يفعل كل ما تتخيله من موبقات .. بل وكان يأتي بعشيقاته إلى البيت ليغيظني.. تصور هذا!!!.. حتى إنه ضربني وأهانني أحيانا كثيرة أمامهن .. وقد كان يرفض طلاقي تماما ويراني مادة دسمة لإرضاء ساديته وجنونه وقسوته .. فكنا نخشى مواجهته وتقديم أي شكوى ضده.. فهو رجل ثري له نفوذ مخيف في البلد.

سكتت قليلا لتجهش في البكاء أمام نظراتي المتعاطفة .. قبل أن يضع الضابط يده على يديها ويهدئ من روعها .. ثم يرجوها أن تتمالك أعصابها وتكمل القصة .. و:

- لقد توفي زوجي بعد حوالي 6 شهور من زواجنا فحسب بسبب جرعة زائدة!!! .. ولا يمكنك أن تتخيل كيف كانت فرحتي حينها .. فشعرت أن الله سبحانه وتعالى قد رأف بحالي وأنقذني منه .. ولو قدر لك أن تكون بين أفراد عائلتي أيام العزاء .. فستظن أن هذا يوم زفافي .. إذ رحت أحتفل مع أقاربي وأتلقى التهنئة من الجميع ومن كل من عرف بمعاناتي معه وقد ظننت أن حياتي ستعود كما كانت بعد موته .. وربما أفضل .. خاصة مع الأموال الهائلة التي ورثتها منه بالإضافة إلى الفيلا.

نظرت إليها بحسرة شديدة وأنا أقول:

- هذه المشكلة تتكرر كثيرا في مجتمعنا مع الأسف .. إنك صغيرة على الزواج .. ومعظم الفتيات في مثل سنك لا يرين في الزواج سوى ليلة الزفاف والفستان الأبيض .. ولا يفكرن ما سيلي هذا من مسؤوليات ومشاكل .. ولا حتى بنوعية الرجال الذين يتقدمون لخطبتهن .. خاصة وأن هناك نسبة كبيرة من شبابنا ليسوا سوى أوغاد بمعنى

الكلمة.. يحلون لأنفسهم كل شيء بما فيه الخيانة .. بل ويرونها حقا مكتسبا!!!.

نظرت إلي بدورها بامتنان شديد وكأن كلامي قد أثلج صدرها .. لتستطرد قائلة:

- لم يكن هذا كل ما يتعلق بزوجي .. فهناك أمر آخر مخيف لم أخبر أحدا به .. فقد كان إنسانا غريب الأطوار.. يمارس أفعالا شيطانية مخيفة تقشعر لها الأبدان .. إذ كان يدرس السحر!!! .. نعم ما أقوله لك هو الحقيقة.. لقد كان يدرس أحد أنواع السحر .. شيئا مخيفا يطلق عليه اسم (فن الاتصال بالموتى)*!!! .. إن كتبه ومذكراته كلها موجودة في

---

* فكرة الاتصال بالموتى هي ظاهرة أخذت مكانها في الأبحاث والدراسات الجادة على الرغم مما قد يبدو عليه الأمر من سخافة للوهلة الأولى .. وقد بدأت الفكرة مستندة على نظرية علمية يطلق عليها اسم (ظاهرة الأصوات الإليكترونية) أو (EVP) وهي اختصارا لـ(Electronic Voice Phenomena) .. وقد بدأت الفكرة مع العالم الشهير مخترع المصباح الكهربائي (توماس أديسون) عندما داعب ذات مرة صحفيا بقوله إنه يعمل على اختراع جهاز سيستخدمه للاتصال بالموتى .. وبالطبع نشر الصحفي المتحمس الخبر .. إلا أن (أديسون) خرج بعدها ليقول إن كلامه كان دعابة وقد أساء الصحفي فهمها .. لكنه بدعابته هذه أثار اهتمام العديدين .. إذ راح عدد لا بأس به من العلماء يتساءلون: هل من الممكن حقا اختراع=

غرفة المكتب إذا أردت الاطلاع عليها والتأكد من كلامي .. حتى إن الضابط لم يصدقني إلا بعد أن رأى تلك المذكرات بنفسه .. لذا قرر المجيء معي لمقابلتك!!!.

نظر إليها الضابط بهيام واضح .. وهو يقول:

=جهاز للاتصال بالموتى؟! .. بل إن بعض الباحثين بدأوا بإجراء تجارب حقيقية حول ذلك .. بعضها نشر في خمسينيات القرن الماضي في مجلات علمية متخصصة .. حيث قام الباحث الشهير الدكتور (سكوت روجو) - وهو رجل يحظى باحترام كبير في الأوساط العلمية - بتأليف كتاب حول تلك الظاهرة يحمل اسم (اتصالات هاتفية من الموتى) (Phone Calls From the Dead) .. حيث تحدث فيه عن تسجيل أصوات الموتى وعن شهادات العديد من الناس الذين أقسموا بأنهم تلقوا اتصالات هاتفية من أقاربهم الموتى!!! .. والغريب أن هذا الدكتور قد تعرض للقتل في منزله عام 1990 من قبل مجهول .. ولا أحد يعرف من قتله أو إن كان قتله مرتبطا بأبحاثه .. كما قام بعدها الباحث النفسي (كونستانتين روديف) بتسجيل أكثر من 100 ألف تسجيل صوتي .. احتوت كلها على ما بدا وكأنه أصوات آدمية تتحدث بأكثر من لغة .. حيث قام بربطها بالأشباح وأرواح الموتى .. والمعلومات حول تلك التسجيلات متوفرة في كل مكان ويسهل العثور عليها في شبكة الإنترنت. يقول المشككون إن تلك الأصوات التي تم تسجيلها عشوائية وغير واضحة ومن الممكن أن يتم تأويلها كما نشاء .. أما تفسير الاتصالات الهاتفية .. فيقولون أيضا إنها ليست سوى أوهام وتهيؤات نتيجة أمراض نفسية يعاني منها من فقد شخص عزيز.

- لم يكن هذا السبب الوحيد لمجيئي معك .. إنني أهتم لأمرك يا (هبه) .. وأريد أن أحميك دائما.. حتى بعد الانتهاء من تلك القضية .. حتى بعد .. حتى بعد....

لم يكمل عبارته .. فقد تذكر وجودي ليحمر وجهه خجلا أمام نظرات الفتاة الممتنة .. قبل أن تتبدل ملامحها فجأة .. وكأنها تعود إلى عالم الواقع .. لتقول بصوت مرتجف:

- كما أخبرتك .. كان زوجي يقرأ ويبحث في كتب صفراء قديمة تملأ مكتبه .. ولا أعرف كيف حصل عليها حتى يحقق حلمه كما كان يقول .. حلم الاتصال بالموتى!!!.. بل وكان يدعي أن لديه تسجيلات صوتية كثيرة مع أموات.. حتى إنني سمعت تلك التسجيلات ذات مرة بنفسي .. وشعرت بذعر حقيقي .. لا أعلم إن كانت تلك التسجيلات مفبركة.. لكنها بدت لي حقيقية تماما وتحرك خيالك بصورة تجعلك عاجزا عن النوم!!! .. و .. بالطبع فإن ما عرفته عن هوايته اللعينة هذه جعلني أهابه كثيرا وأرتجف منه خوفا حين أراه.. خاصة مع التبدل السريع الذي لاحظته في طريقة تعامله معي .. وكأنه طفل شبع من لعبته الجديدة –التي هي

أنا بطبيعة الحال- وقام بتكسيرها.. حتى إنني كرهت الفيلا كثيرا .. وشعرت أنها مسكونة بالأشباح والشياطين في كل ركن منها!!!.

نظرت إليها طويلا دون رد .. وقد شعرت أن أجواء المكان قد توترت بالفعل .. وأنني لا أرغب في النوم وحيدا في غرفتي اليوم!!! .. فسألتها بقلق:

- لم أفهم بعد .. كيف كان زوجك يتصل بالموتى؟!!!.

ردت بحذر:

- سمعته ذات مرة يتحدث عبر الهاتف مع أحد أصدقائه والذي له اهتمامات مخيفة مشابهة .. فكان يقول لصديقه إنه يتصل بالموتى عبر الموجات الكهربائية .. فالموجات الكهربائية غير مرئية .. تماما كالأشباح .. وبوسيلة مجهولة تمكن من ضبط الموجات الكهربائية مع الأبعاد التي تعيش فيها الأشباح .. فصار الاستماع إليها أمرا ممكنا .. لكنه لم يعرف كيف يتحدث إلى الأشباح.. إنه فقط يستمع.. ويقول أن الأصوات التي سمعها مختلطة ومزعجة وكأنها

تأتي من الجحيم نفسه.. لقد سمعت بعضها بنفسي كما قلت لك .. وكدت أن أصاب بسببها بالجنون .. حتى إنني وقعت أرضا عند قدميه أرجوه أن يطلقني ويرحمني.. بل وتوسل إليه والدي وعمي أن يفعل .. إلا أن الوغد لم يبالِ بأحد .. بل كان يصرخ بوجهيهما بكل وقاحة ويقول إنه لا توجد قوة في العالم تستطيع أن تفرض عليه الطلاق .. فانهار والدي المسكين لأنه يعلم أننا نعجز تماما عن مواجهته .. ومركزه الاجتماعي يتيح له سحقي مع أسرتي بكل سهولة.. المهم أن مع مرور الأيام راح زوجي الوغد يأمرني بعدم زيارة منزل عائلتي .. وإن فعلت .. فسيضربني بكل قسوة .. وقد فعلها ذات مرة بالفعل.. فأصابني بكدمات كثيرة وتركني أشبه ما أكون جثة هامدة أنزف دما وألما في فراشي .. إلى أن لقي حتفه جراء تعاطيه المخدرات التي خلصتني منه وجعلتني أتلقى واجب العزاء وقلبي يكاد يطير فرحا .. وقد ورثت من زوجي البيت وورثت معه مبلغا كبيرا من المال .. دعك من أنه توفي وأنا صغيرة في السن لا تزال أمامي الحياة بطولها وعرضها

لأعيشها .. والأهم من كل هذا أنني أخذت حريتي أخيرا وأرحت نفسي من هذا العذاب.. أو هذا ما ظننته!!!.

سكتت طويلا ثم قالت وهي تختلس النظر إلي وكأنها تخجل من إكمال كلامها .. لكنها تحدثت أخيرا لتقول:

- لقد صعقت مرة أخرى وتدهورت حياتي إلى الأسوأ حين علمت أن زوجي الميت .. زوجي الميت .. زوجي الميت يهددني بالقتل!!! .. بل ويقترب كثيرا من تحقيق هدفه!!!.

قالتها وسكتت تماما .. فنظرت إلى الضابط بذهول منتظرا منه تفسيرا لكلامها .. لكنه لم ينطق بحرف .. إذ كان ينظر إليها متعاطفا بحب وحنان واضحين .. فهز رأسه مشجعا ليحثها على الكلام .. و:

- لقد فوجئت بظهور زوجي في أحلامي بعد مرور بضعة أسابيع على وفاته واستنشاقي الحرية والأمان!!! .. نعم.. لقد ظهر زوجي في أحلامي بعد وفاته وبشكل شيطاني مخيف.. تماما كالجاثوم!!! .. فكان يحاول خنقي وهو يردد: ((إنك

تحبين الحياة أيتها الحقيرة .. أليس كذلك؟!!.. هذا أمر طيب.. لأنني لن أستمتع إذا قتلت أحدا لا تهمه الحياة كثيرا)).. حتى إنني صحوت من نومي وأنا أسعل بقوة وأعب الهواء في صدري وكأنني كنت أختنق فعليا!!!.. فظننت في البداية أن هذا كابوس طبيعي وانعكاس متوقع لحالتي النفسية بعد شهور من العذاب معه .. لكن .. تكرر الأمر في اليوم التالي.. وفي اليوم الثالث .. وأصبح زوجي يظهر لي في كل ليلة منذ ذلك الحين ويحاول خنقي حتى الموت .. لأصحو في كل مرة والعرق يملأ جسدي وأنفاسي تكاد أن تتوقف.. أعرف جيدا أن الإنسان لا يموت أثناء الحلم .. إذ يستيقظ دائما قبل لحظة الموت* .. لكن .. تكرار الأمر بهذه الصورة المخيفة جعل حياتي جحيما .. حتى بت أخشى الذهاب إلى الفراش.. ولك أن تتصور معنى الحياة التي يكون فيها المرء عاجزا عن النوم بطمأنينة!!! .. إن الوغد ليس بحاجة ليقتلني كي يقتلني.. ولا يوجد خطأ أو تناقض في عبارتي تلك .. فأنا أموت قلقا ورعبا مائة مرة في اليوم!!!.

---

* حقيقة.

راحت بعدها تنظر إلى الضابط الذي أردف مؤيدا:

- قد يكون هناك شيء مرتبط بزوجها .. ربما هو فن الاتصال بالموتى الذي كان يتعامل به .. أعتقد أنه بعد وفاته .. أصبحت روحه على دراية بكيفية الاتصال بالأحياء بما أنه عرف كيف يتصل بالموتى خلال حياته!!!.. لا أعرف.. الأمر شديد الغموض كما ترى .. حتى إنني في البداية لم أصدق (هبة) واقترحت عليها مراجعة طبيب نفسي ظنا مني أنها مشكلة نفسية فحسب .. إلى أن حدثت الكارثة قبل بضعة أيام!!!!.

نظرت إليهما مشدوها غير مصدق أن الضابط يؤيد (هبة) تماما ويصدق كل كلامها .. لتكمل هي:

- تماما .. لقد كنت أتحدث مع إحدى صديقاتي عبر هاتفي النقال قبل أيام قليلة فحسب .. ثم سمعت صوتا متداخلا في المكالمة يقول بوضوح شديد: ((لن أتوقف أيتها اللعينة.. سأزورك في أحلامك كل ليلة وأحيل حياتك جحيما إلى أن أقتلك أخيرا))!!! .. أعرف أنك لن تصدقني .. بل أنا

نفسي لم أصدق ما سمعته في بادئ الأمر .. لقد حاولت إقناع نفسي في البداية أن الأمر ربما لا يتعدى وجود خلل أو تداخل في خطوط الهاتف .. أو أن صديقتي قد افتعلت ذلك الصوت .. لكن .. لن أكذب على نفسي .. الصوت كان صوت زوجي!!! .. نعم .. أنا واثقة من ذلك .. أرجوك لا تقل إنني واهمة .. لست واهمة على الإطلاق .. لقد كان صوت زوجي الميت بالفعل .. عندها فقط .. شعرت بأنني ضائعة تماما .. وأن مصيري بأكمله بين يديه!!! .. لقد كنت أخشاه كالموت ذاته أثناء حياته .. وها أنا أشعر بذات الخوف بعد وفاته .. حتى إنني قلت ما حدث لأقرب صديقاتي .. فاقترحت علي الاتصال بشقيقها الضابط .. لألتقي به وأخبره بكل ما حدث .. وها هو يقف إلى جانبي ويحاول مساعدتي.

كنت أنظر إليهما ببلاهة .. قبل أن أتمالك أعصابي .. وأقول بحكمة الطبيب النفسي:

- إنك مخطئة تماما بظنونك .. فأنت تتحدثين عن احتمال حدوث جريمة قتل سيرتكبها شخص ميت!!! .. سيدتي ..

يبدو أنك عشت مع زوجك أوقاتا عصيبة .. ولا شك أنها قد أثرت على حالتك النفسية كثيرا .. وما يحدث لك من أحلام وكوابيس هو نتاج طبيعي لما مررت به من عذاب .. المعذرة ولكن العلم لا يعترف بمواضيع الأشباح واتصالات الموتى تلك .. وأنا كرجل علم أرى أن الأمر لا يتعدى أعراضا نفسية متوقعة بسبب قسوة زوجك.. فعقلك الباطن ما زال يخشاه رغم وفاته .. وهذا ما يجعلك تحلمين به طوال الوقت مع ظهور تهيؤات أخرى متوقعة تماما .. مثل سماع صوته عبر الهاتف مثلا .. العلم لا يعطيك أوهاما يا سيدتي .. فهو يتعامل فقط مع الحقائق.. حتى لو كانت قليلة .. لكنها حقائق مؤكدة وهذا هو المهم.

قال الضابط – الذي لم يخبرني باسمه – بحزم شديد:

- أرجوك أن تصدقها يا دكتور .. المعذرة .. أنا لست طبيبا نفسيا .. لكني واثق أنه لا توجد أي أوهام إن كان هذا ما تظنه.

قلت بحزم:

- تذكر أننا لا نتحدث هنا عن أدلة مادية يا حضرة الضابط.. بل عن أحلام .. حتى وإن تكررت .. فهذا لا يعني شيئا سوى انعكاس لحالة (هبه) النفسية .. لا يمكن أن نتعامل مع الأمر على أنه تهديد صريح بالقتل وإلا لما لجأتم إلي .. أليس كذلك؟!!!.

رد بتوسل واضح أمام نظرات (هبه) القلقة:

- يا دكتور .. أعرف أنه لا توجد قضية هنا .. فما نقوله لك لا يحكمه قانون .. وأنا رجل أنفذ القانون كما تعلم .. ولا يوجد أي شيء قانوني أستند إليه لمتابعة قضيتها .. إن زوجها ميت .. وهذا ينهي القضية من الناحية القانونية.. أدرك ذلك جيدا .. ولهذا لجأنا إلى الطب النفسي .. ربما تستطيع أنت مساعدتها!!!.

سألته باستغراب:

- ولماذا لجأتما إلى الطب النفسي أصلا إن كنتما لا تريدان أن تأخذا بكلامي؟!!.

بدا سؤالي هذا وكأنه صفعة على قفا كل منهما .. إذ بهتا تماما .. خاصة الضابط الذي لم يعرف كيف يجيب كونه صاحب فكرة زيارة مستشفى الطب النفسي .. يبدو أنه اقترح ذلك كي يكون بجانب (هبه) فحسب .. إنه يحبها دون شك .. يبدو أنها من تلك اللحظات الخاطفة التي ترى فيها فتاة ما وتشعر أنك تحبها وتريد أن تكون بقربها .. فلو اعتذر منها في أول لقاء بينهما وأخبرها بعدم قدرته على مساعدتها لانتهى الأمر .. ولما تمكن من البقاء بجانبها بعد ذلك.

كان واضحا أنني محق في كلامي .. إذ لم يرد الضابط على سؤالي .. بل نهض من مكانه متأهبا للخروج وعلامات الحرج واضحة على ملامحه .. لكن .. نهضت الفتاة فجأة بذعر وهي تقول بعينين دامعتين وكأنني الأمل الأخير لإنقاذ حياتها:

- أرجوك .. أرجوك يا دكتور .. لا يوجد من يستطيع أن يساعدني .. إنني أموت .. أموت ببطء شديد .. أرجوك أنقذني من عذابي!!! .. إنني أتعذب في نومي .. وحتى في يقظتي .. أصبحت أخشى كل شيء .. أخشى دخول الحمام في الليل .. وحتى عندما أكون متواجدة فيه .. تجدني أزيح

ستار حوض الاستحمام بقلق ورعب حقيقيين لأرى إن كان الحوض يخفي شيئا!!! .. حتى عندما أغمض عيني أثناء الاستحمام لأغسل شعري .. أتساءل بذعر إن كان هناك شيء يحدث حولي .. إنني ألتفت يمينا ويسارا طوال الوقت يا دكتور .. أرجوك افهمني!!!.

لم أجد ما أقوله أمام هذه التوسلات .. فنظرت إليها طويلا.. ونظرت إلى الضابط الذي راح ينظر إلي بدوره بمزيج غريب من الأمل والغيرة .. ثم .. قلت وأنا أزفر بقوة:

- لماذا لا تسمحين لي بفحصك وإقامة بعض الجلسات العلاجية لك؟!! .. أنا لا أتهمك بالجنون .. ولكن .. ليس كل من يراجع طبيبا نفسيا يصنف كمجنون .. إن ما يحدث لك ليس سوى تراكمات من العذاب النفسي الذي مررت به .. أستطيع أن أساعدك بهذه الطريقة بكل تأكيد .. أما إذا كنت تطلبين مساعدتي من خلال تصديق قصتك فهذا مستحيل لأنني لا يمكن أن آخذها مأخذ الجد.

قالت بحدة:

- هل لك أن تفسر لي إذا كيف سمعت صوت زوجي عبر الهاتف وهو يهدنني بالقتل؟!.

سألتها مبتسما بثقة:

- لقد قلت إنك كنت تتحدثين مع صديقتك عندما سمعَتْ صوته فجأة وهو يهددك بالقتل .. حسنا .. هل سمعت صديقتك صوته أيضا؟؟!!.

هزت رأسها نفيا باستسلام واضح .. فاتسعت ابتسامتي وأنا أقول:

- هل رأيت؟! .. إنني على حق .. إنها أوهام لا أكثر .. ثم لو كانت أشباح الموتى موجودة وتستطيع الاتصال بنا بهذه الوسيلة .. لاتصل الأشباح بجميع أقاربهم الأحياء أليس كذلك؟!! .. المعذرة لكن الفكرة هزلية إلى حد ما.

ردت بأسى:

- لقد قرأت بعضا من كتب زوجي ومذكراته .. حيث يرجح فيها أن شبح الميت لا يعرف عادة كيف يتواصل مع الأحياء

إلا إذا كان الشبح نفسه لشخص قد تعلم قبل وفاته كيفية الاتصال بالموتى .. تماما كما حدث مع زوجي .. وإلا لتمكنت كل الأشباح من الاتصال بنا كما تقول.

رددت معترضا:

- يا عزيزتي .. لا تحدثيني عن الأشباح .. أرجوك .. قلت لك سابقا .. لا توجد مصطلحات كهذه في كتب الطب النفسي.. لكني لن أتركك وحيدة على كل حال .. سأقدم لك كل ما تحتاجينه من عون إلى أن يختفي ظهور زوجك في أحلامك.. بعض الجلسات العلاجية سيكون لها تأثير إيجابي عليك .. ثم .. حاولي أن تخرجي قليلا من جو الكآبة هذا .. أخرجي مع صديقاتك .. سافري إلى الخارج بعض الوقت .. ربما من الأفضل أيضا أن تنامي في مكان آخر غير بيت زوجك .. إذ يبدو أن له تأثيرا سلبيا على حالتك النفسية!!!.

ردت باستنكار:

- هل تظن أنني لم أفعل؟!! .. بكل تأكيد فعلت .. فأنا الآن أعيش في بيت والدي .. لا يمكن أن أبقى في بيت زوجي

بعد ما كل ما حدث .. بل إن البيت معروض الآن للبيع.. لكن هذا لن ينقذني من شيء .. فالوغد لن يتركني في حالي أبدا .. إنه .....

لم تكمل عبارتها .. بل سكتت تماما وقد تذكرت أنني لا أصدق حرفا مما تقول .. فنظرت إليهما مبتسما طالبا منهما - بكل أدب - الخروج لأن هناك بعض المرضى ممن يجب علي فحصهم وإخضاعهم لجلسات علاج .. خاصة أنها لا تنتظر مني علاجا نفسيا .. بل تريدني أن أصدق قصتها وأحاول مساعدتها على هذا الأساس دون أن تخبرني كيف.. قلت هذا .. واستأذنتهما للرحيل وسط نظرات الاعتراض منهما.

تركتهما وتوجهت إلى الباب .. فتبعاني بيأس .. إلا أن الضابط قد أمسك بذراعي وجرني بعيدا وهو يرجوني ويتوسل إلي أن أجد حلا لهذه المشكلة .. إذ بدا لي أنه متيم بـ(هبه) ويذوب في غرامها!!! .. وقد أشعرني هذا بشيء من الضيق .. حتى أنني تحدثت معه بكل صراحة وطلبت منه الابتعاد تماما عن عواطفه أثناء تأدية واجبه .. فرد بصوت العاشق المحب الذي لا يمكن أن أخطِئه:

- يا دكتور .. هذه الفتاة تحتاج إلى مساعدة .. ولن أتخلى عنها أبدا .. سأكون إلى جانبها .. على عكسك أنت!!!.

قلت بامتعاض:

- هذا حقك .. لا أملك سلطانا عليك .. لكن .. لا تجعل عاطفتك تحكم حياتك .. ولا تتأثر كثيرا لمجرد أن من طلبت مساعدتك هي فتاة جميلة .. أرجوك تذكر هذا.

لم يرد .. بل نظر إلي بأسف .. ثم خرج برفقة (هبه) وهو يواسيها ويخبرها ألا تستمع إلى ذلك الأحمق - الذي هو أنا - وأنه سيكون إلى جانبها مهما حدث .. و .. شيئا فشيئا.. نسيت الموضوع تماما مع زحمة الحياة اليومية .. خاصة أن (هبه) لم تمتثل لنصيحتي ولم تزرني بعدها للخضوع لجلسات العلاج النفسي كما طلبت منها.

لكن .. لم تنتهِ القصة عند هذا الحد .. إذ حدثت بعدها تطورات سريعة وغريبة للغاية جعلتني أغرق تماما في تفاصيل هذه القصة .. فبعد حوالي أسبوعين .. فوجئت بزيارة ضابط شاب في مثل سني تقريبا مرتديا زيه العسكري.. ليخبرني

بأسى وبعينين مليئتين بالدموع:

- (هبه) .. (هبه) يا دكتور .. لقد .. لقد ماتت مساء أمس!!!.

سألته بغباء:

- (هبه) من؟!.

رد بأسى:

- الأرملة الصغيرة التي قالت إن زوجها الميت يظهر لها في أحلامها ويهددها بالقتل .. هل تذكر؟!!.

يا إلهي .. تذكرت الآن!!!! .. لم أعرف الضابط في بادئ الأمر .. إذ بدا مختلفا بلباسه العسكري .. لكن .. مهلا .. يقول إن (هبه) ماتت؟؟!! .. نهضت من مكاني لا شعوريا وأنا أنظر إليه بدهشة بالغة .. قبل أن أقول وأنا أزدرد لعابي:

- كيف؟! .. كيف ماتت؟!.

قال وهو يمسح دموعه:

- لقد كانت تسكن عند والديها كما تعلم .. حيث وُجدت مقتولة في غرفة نومها .. تقول والدتها إنها ذهبت لتوقظها من النوم بعد أن ظلت ابنتها نائمة إلى فترة الظهيرة على غير العادة .. فدخلت غرفتها ووجدتها ميتة وقد تحول وجهها إلى اللون الأزرق .. فبدا واضحا من الفحص الأولي أنها ماتت مخنوقة .. يبدو أن المسكينة كانت على حق .. لقد قتلها زوجها اللعين خنقا أثناء نومها .. لا أعرف كيف حدث ذلك!!!.

نظرت إليه طويلا .. قبل أن أتنحنح وأقول بحزم لا يخلو من الأسف:

- رحمها الله .. إنها .. إنها جريمة قتل عادية .. ما حدث لا يعني أن كلامها كان صحيحا يا حضرة الضابط .. لقد كانت الفتاة مضطربة نفسيا كما بدا لي .. لا يمكن أن تقنعني أن شبح زوجها الميت قد عاد ليقتلها .. مستحيل.. كيف يا رجل؟!! .. لا يوجد شيء كهذا في عالم الواقع .. لا توجد أشباح يا عزيزي .. فكيف بأشباح ترتكب جرائم قتل؟!!.. هذا هراء!!!.

سألني بغضب لا يخلو من الحزن وكأنه يلومني على ما حدث:

- من قتلها إذا؟؟!! .. أخبرني.

قلت بحدة:

- ربما انتحرت .. ربما تكون جريمة قتل عادية بعيدا عن الأشباح .. لا شك أن تحقيقاتكم ستكشف كل شيء في النهاية .. أرجوك .. فكر جيدا بما كانت تقوله الفتاة بعيدا عن عواطفك تجاهها .. كانت تقول إن زوجها الميت يهددها في أحلامها!! .. وهي وحدها التي سمعت صوته عبر الهاتف وهو يهددها بالقتل أثناء محادثتها مع صديقتها!! .. هل تبدو لك تلك الأمور طبيعية؟؟! .. هل تجد من يصدق هذه الأمور شخصا سويا؟؟! .. إذا كنت ستبدأ حياتك العملية في سلك الشرطة مستسلما للخرافات .. فهذه مصيبة.

نظر إلي طويلا حتى شعرت للحظة أنه سينقض علي ويلكمني في وجهي .. ربما لا يمنعه من ذلك سوى الخوف من تدمير مستقبله المهني .. فاكتفى بهز رأسه بأسف واضح..

واستدار سريعا خارجا من الغرفة وعيناه ما زالتا تذرفان الدمع بشكل بدا غريبا كونه يرتدي الزي العسكري الذي اعتدنا أن نرى معه الصرامة والحزم!!!!.

تركني أخيرا في غرفتي .. وقد شعرت بشيء من الحزن لما حدث لـ(هبه) .. لكن .. ما زلت واثقا من رأيي.. أشباح واتصال بالموتى .. زوجها الميت يهددها بالقتل عبر الهاتف ثم يخنقها في أحلامها .. أي هراء هذا؟! .. ثم لماذا يلومني أنا؟!! .. هل كان هناك ما أستطيع فعله حتى وإن صدقت كلام (هبه)؟!! .. بالطبع لا.

جلست على كرسي المكتب .. وأخذت نفسا عميقا محاولا نسيان ما حدث .. ظنا مني أن القصة انتهت عند هذا الحد وأنني لن أرى الضابط مرة أخرى .. وقد كنت محقا في تصوري هذا.. لكن بصورة أخرى لم أتوقعها إطلاقا!!!.

فقد تلقيت علقة ساخنة - وللمرة الثانية - أعادتني سريعا إلى أجواء هذه القصة العجيبة!!! .. فبعد يومين فحسب على زيارة الضابط لمكتبي .. حدث أمر آخر مفاجئ ولا يخطر

ببال.. عندما جاءني اتصال على هاتفي النقال في وقت متأخر من الليل .. كان الاتصال هذه المرة من رقم غريب ليس محفوظا في ذاكرة هاتفي .. فأجبت بشيء من الفضول .. و:

- دكتور .. أرجوك اسمعني قليلا .. لقد .. لقد بدأت أحلم بـ(هبه)!!! .. الأرملة الصغيرة .. هل تذكرها؟؟! .. إنها تزورني في أحلامي وترجوني أن أنقذها من زوجها.. إنه يلاحقها حتى بعد موتها!!! .. يطاردها في عالم الأشباح!!.. أرجوك صدقني .. لا أجرؤ على قول هذا الكلام لأي شخص آخر .. لكن .. أنت على الأقل تعرف القصة من بدايتها – وإن لم تصدقها – ولن تسألني تلك الأسئلة الغبية التي قد يطرحها أي شخص يستمع إلى القصة لأول مرة!!!.

عرفت هوية المتصل بالطبع .. فقلت بعصبية واضحة وقد شعرت أن الأمر يتجاوز الحدود:

- اسمعني جيدا .. يجب أن تكف عن هذا الهراء .. لن أسمح لك بإضاعة وقتي بهذه المواضيع مرة أخرى .. ولن أسألك

عن كيفية حصولك على رقم هاتفي النقال .. لكن .. يبدو أنك تستغل نفوذك كرجل أمن بصفاقة!!!.

رد بغضب حقيقي وهو يعض على أسنانه كما بدا من صوته:

- اسمعني أيها اللعين .. لقد كنت أنا من المتابعين لقضية (هبه) بعد موتها .. وعرفت من تقرير الطبيب الشرعي أنها ماتت مختنقة بالفعل رغم صعوبة دخول أي شخص للبيت وخنقها ثم الهرب مثلا .. فباب الغرفة كان مقفولا من الداخل .. والغرفة في الطابق الثاني .. وشبّاكها كان مغلقا من الداخل أيضا .. فهل لك أن تخبرني كيف ارتكب القاتل جريمته؟؟! .. ثم إنني قمت بتفتيش بيت زوجها بدقة بعد الحصول على إذن من النيابة .. ووجدت هناك عشرات الكتب التي أخبرتنا عنها (هبه) والتي اطلعت بنفسي على بعض منها في السابق .. هل تذكر؟؟! .. حتى أنني أخذت بعضا من هذه الكتب وقرأتها بتمعن .. العديد منها كتب نادرة وقديمة جدا .. لكني لم أحتمل الاحتفاظ بها أكثر من ذلك .. لقد شعرت أنها كتلة من الشر .. فقمت بحرقها كلها.. ولكن .. المشكلة أنني بدأت أحلم

بـ(هبه) وهي ترجوني وتطلب مني إنقاذها من زوجها .. بل ورأيت زوجها في الحلم!!! .. لقد بدا لي مخيفا بنظراته الشيطانية.. في حين بدت هي كالفراشة الرقيقة التي تريد من يحميها .. أرجوك افهمني .. إن اللعين يلاحقها في عالم الأشباح ولن يتركها أبدا كما يبدو .. إنني .....

لم أحتمل أكثر .. فقلت بصرامة:

- هذه هي المرة الأخيرة التي أسمعك تتحدث فيها عن أمر كهذا .. ولو فعلت .. فأقسم لك أنني سأتقدم بشكوى رسمية ضدك .. هل فهمت؟!!.

سكت طويلا .. قبل أن أشعر به عبر الهاتف وهو يبتلع لعابه .. لينهي المكالمة بأسى:

- حسنا يا دكتور .. شكرا على كل شيء!!!!.

قالها ولم أنتظر منه أن يقفل الساعة .. بل أقفلتها بنفسي.. وذهبت إلى الفراش وأنا ألعن الغباء وألعن الخرافات وألعن الضابط .. و .. نمت أخيرا.

في فترة الظهيرة من اليوم التالي .. استيقظت من النوم مستعدا للذهاب إلى المستشفى في النوبة المسائية .. شاعرا بشيء من الضيق بسبب الطريقة التي تحدثت فيها مع ذلك الضابط .. فهو لا يقصد الضرر بأحد .. وإن كان يتصرف بغباء يثير جنوني!!!.

المهم أنني شعرت بشيء من تأنيب الضمير بسبب معاملتي له .. وشعرت أيضا برغبة حقيقية في الاتصال به والاعتذار منه.. فأمسكت بهاتفي النقال .. وبحثت عن رقمه ضمن قائمة الأرقام التي وردت إلى هاتفي .. لحظات قليلة قبل أن أضع السماعة على أذني منتظرا أن يرد الضابط على اتصالي .. لكني.. لكني .. لم أكن أتوقع إطلاقا ما سيحدث.. فقد رد على الهاتف صوت غريب يتحدث بحزن بالغ .. إنه شقيق الضابط.. نعم .. تماما كما تظنون .. لقد توفي الضابط مساء أمس في وقت متأخر وبعد أن اتصل بي بحوالي ساعتين!!!!.

كانت صدمة مروعة .. حتى إنني شعرت بذنب شديد لكل ما قلته له في المرات القليلة التي تحدثنا فيها .. ووجدت نفسي أبكي بحرقة نتيجة ما حدث .. قبل أيام قليلة كان الرجل

جالسا في مكتبي معتدا بنفسه ويحاول حماية (هبه).. كان يملأ البصر .. لكنه الآن تلاشى من عالمنا .. يا إلهي .. في كل مرة يموت فيها أحد معارفنا موتا مفاجئا تتكرر فيها تلك اللحظات ونشعر بالرهبة!!!.

أخذت عنوان مكان العزاء من شقيقه .. وذهبت إلى هناك في نفس اليوم بعد الدفن .. فوجدت والديه وأشقاءه يبكون بحزن ولوعة .. وبالطبع كان لا بد من الكثير من المواساة والعزاء .. وكان لا بد أيضا من سماع تلك العبارات التي تتحدث عن الشاب الذي مات قبل أن يعيش شبابه وعن مستقبله الذي ذهب أدراج الرياح .. عبارات مكررة .. لكنها تصيبك في الصميم كل مرة تسمعها.

بعد أكثر من نصف ساعة .. تمكنت من التحدث مع شقيق الضابط .. فأخبرني أن المرحوم قد سقط من على السلم وانكسرت رقبته .. إنه حادث يقع في كل مكان وطوال الوقت.. هذا حادث قد يفسره الجميع على أنه قضاء وقدر بكل تأكيد .. لكن بالنسبة لي .. وجدت أنها صدفة غريبة أن يلحق بحبيبته بعد موتها بفترة بسيطة.. لذا .. سألته إن

كان هناك أي شيء مريب متعلق بموته.. فأخبرني شقيقه أن المرحوم تلقى اتصالا على هاتفه النقال أثناء نزوله من على الـدرج للجلوس في غرفة المعيشة مع شقيقاته .. ويبدو أن الاتصال فاجأه كثيرا .. أو قد يكون المتصل أخبره بشيء ما أطار صوابه.. فاختل توازنه أثناء نزوله .. وتعرقلت قدمه أو تزحلقت (لا فارق) .. ليقع على درجات السلم وينزلق إلى الأرض بعنف لتنكسر رقبته ويلقى حتفه مباشرة .. تماما كما نرى في مشاهد السينما!!!.

عندما ذكر شقيق الضابط أمر الاتصال الهاتفي .. ارتج جسدي بقوة وازدردت لعابي بصعوبة .. ثم سألته إن كانوا قد عرفوا هوية المتصل على الأقل .. إلا أنه هز رأسه نفيا وقال إن رقم المتصل لم يكن ظاهرا على شاشة الهاتف!!!.. وكأن الاتصال قادم من جهاز كمبيوتر ربما .. أو بواسطة إحدى الوسائل الكثيرة التي يخفي فيها المتصلون هويتهم.

راح قلبي ينبض بعنف .. من الذي اتصل به؟!! .. لماذا لم يظهر رقم المتصل على شاشة الهاتف؟!! .. لماذا أخافه الاتصال إلى هذا الحد لدرجة أنه أخل بتوازنه وتسبب بموته؟!!! .. هل

كان الاتصال من (هبه) مثلا!! ..أو زوجها؟!.. يا إلهي .. يا إلهي هل من الممكن أن يحدث أمر كهذا ؟!! .. هل .. هل .. هل كان الضابط المسكين محقا؟؟!! .. أشعر بأنني وغد حقيقي لأنني لم أصدقهما .. ترى .. هل كانت (هبه) محقة أيضا بدورها؟؟!!.. هذا لا يمكن أن يحدث .. لـ .. لـ .. لأول مرة في حياتي أبدأ بتصديق أمور كهذه .. كل ما يحدث حولي يدل على صدق الفتاة والضابط رحمهما الله .. بينما كنت أكابر بعناد واضح طوال الوقت وأتمسك بقواعدي العلمية السخيفة!!!.

وأمام كل ما حدث .. لم أجد ما أقوله لشقيق المرحوم .. فأومأت برأسي متفهما .. ورحت أكرر تقديم العزاء للجميع .. قبل أن أخرج عائدا إلى مكتبي في المستشفى .. ووجدت نفسي أبكي مرة أخرى دون توقف .. حتى إنني صحت بصوت مرتفع في السيارة:

- إن كنتما تسمعاني .. أرجوكما أن تسامحاني على ما حدث.. لقد كنت أحمق .. لم أستمع إليكما ورفضت الاعتراف بأن هناك أمورا تحدث خلف إدراكنا في هذا العالم .. كان يجدر بي أن أصدقكما .. أرجوكما أن تسامحاني!!!.

كنت أقول هذا الكلام وأنا أقود سيارتي عائدا إلى المستشفى للنوبة المسائية .. حتى إن جميع زملائي هناك قد شعروا بالقلق بسبب منظري المزري .. إذ كنت أبدو تائها تماما وعيناي زائغتان وكأن عمري قد زاد 10 سنوات دفعة واحدة .. فالتف بعضهم حولي للسؤال عما جرى لي .. لكني التزمت الصمت تماما .. وتركتهم وعلامات الاستفهام واضحة على ملامحهم .. قبل أن أدخل إلى غرفتي وأغلق الباب على نفسي .. لحسن الحظ أن نوبتي ستبدأ بعد نصف ساعة من الآن .. لن أستطيع متابعة أي مريض وأنا في هذه الحالة النفسية.

رحت بعدها أبكي وأنتحب في مكتبي للمرة الثانية أو الثالثة - لا أذكر - كالنساء .. الشعور بالذنب يقتلني رغم قناعتي التامة أنه لم يكن هناك شيء يمكنني فعله لإنقاذ الفتاة أو الضابط .. إلا أن هذا لم يكن يكفي لإبعاد الشعور بالذنب.. فعدم تصديقهما كان كافيا كي أشعر بكل هذه المشاعر السلبية!!!.

و .. بعد ساعات طويلة ثقيلة جدا على نفسي .. انتهت نوبتي المسائية أخيرا .. لأقود سيارتي عائدا إلى البيت في

وقت مبكر جدا من صباح اليوم التالي شاعرا بإرهاق ونعاس لا حدود لهما .. وسط الأمطار الغزيرة التي تهطل عادة في مثل هذا الوقت من شهر (ديسمبر) .. ليرن جرس هاتفي النقال فجأة .. إنها والدتي بكل تأكيد .. نظرت إلى شاشة الهاتف لأعرف هوية المتصل .. إنها والدتي بالفعل .. يبدو أنها استيقظت مبكرا للغاية كعادتها .. وها هي تتصل بي لتطمئن على موعد عودتي إلى البيت .. و:

- كيف حالك يا ولدي .. أرجوك احترس من الأمطار الغزيرة ولا تقد سيارتك بسرعة.

كنت أستمع إليها وأحدثها بشرود بعد أن أعادتني إلى عالمنا المعتاد بعيدا عن الأشباح والموتى .. كنت أتحدث إليها وأفكر جديا - بنفس الوقت - أن آخذ إجازة طويلة وأسافر بعيدا عن كل ما حدث .. قبل أن أشعر أن هناك من يستمع إلى مكالمتنا.. شخص ثالث دخل على الخط .. ثم .. سمعت صوتا مميزا يتحدث عبر الهاتف .. صوتا هادئا للغاية يقول بكل وضوح:

- دكتور .. (هبه) بمأمن الآن .. إنني معها .. سأحميها من

زوجها ولن يتعرض لها بعد اليوم!!!!!!.

لن تحتاج عزيزي القارئ إلى ذكاء لتعرف صاحب الصوت.. إنه صوت الضابط .. نعم .. الضابط الذي توفي أمس!!!.. بالطبع أصبت بصدمة مروعة .. بل وشهقت بعنف وبشكل أخاف والدتي كثيرا .. لكني تداركت نفسي وقلت لها متلعثما:

- المعذرة يا أمي .. يجب أن أتركك .. الطريق زلق للغاية .. وأحتاج إلى تركيز كامل لقيادة السيارة.

فتركتني المسكينة وهي تدعو لي أن أصل بالسلامة وتحذرني من السرعة الزائدة .. أما أنا .. فقد ظللت ممسكا بالسماعة .. علّ أحدهم يتحدث معي .. علني أسمع صوتا آخر .. لكن .. لم يكن هناك أي شيء آخر!!!.

ركنت سيارتي على جانب الطريق وأنفاسي تتضارب بقوة من هول الأحداث .. أتذكر جيدا أن (هبه) رحمها الله قالت إنها سمعت صوت زوجها الميت يحدثها عبر الهاتف ويهددها بالقتل وإنه سيحيل حياتها جحيما .. لكني لم أصدقها في حينها.. إلا أنني الآن أصدقها تماما .. بل وأجزم أنها محقة..

خاصة بعد أن سمعت بنفسي صوت الضابط الميت وهو يتحدث إلي عبر الهاتف .. فلا يمكن أن أكذب أذني أيضا .. لقد كان هذا صوت الضابط بالفعل.. كان يحدثني أنا فقط .. لأن والدتي لم تسمع شيئا مما قاله كما يبدو .. وإلا لكانت هناك ردة فعل منها .. فقد بدت مستغربة بسبب تصرفي المفاجئ عبر الهاتف فحسب .. وليس لأي شيء آخر.

أفكر .. وأفكر .. وأشعة الشمس بدأت تخترق عالمنا وتصل إلى كل ركن فيه بعد انقشاع الغيوم .. الآن فقط أعرف جيدا أن هناك بالفعل عالما آخر نجهله!!! .. وأن هذه الفتاة كانت صادقة إلى أبعد الحدود .. وكذلك الضابط المسكين .. رحمهما الله معا.

لقد بدأت ألوم نفسي كثيرا على ما حدث .. لكن .. عزائي الوحيد الآن هو الاتصال الذي جاءني من الضابط .. إنه مع (هبه) الآن بعد موتهما .. لقد التقيا مرة أخرى في عالم الأشباح .. وهو يحميها من زوجها المجرم .. هذا ما قاله بنفسه منذ قليل.

لكن .. هناك أسئلة كثيرة تظل مطروحة دون جواب واضح.. كيف سقط الضابط من على الدرج ليلقى حتفه؟!!..

هل هي صدفة؟!! .. يقول شقيقه إنه رد على الاتصال الهاتفي أثناء نزوله من على السلم .. وقد بدا مصعوقا من هوية المتصل إلى حد أطار صوابه وجعله لا ينتبه إلى درجات السلم .. فاختل توازنه ووقع .. هذا ما عرفناه جميعا.

فهل كان المتصل هو (هبه) نفسها؟؟!! .. هل اتصلت به كما اتصل بها زوجها الميت أثناء وجودها على قيد الحياة وهددها بالقتل؟!!.

أكرر السؤال الذي يقتلني قتلا .. هل موت الضابط صدفة؟؟!! .. أم أن الله سبحانه وتعالى قد أرسله لينقذ (هبه)؟!! .. ماذا عن (فن الاتصال بالموتى) هذا؟!! .. كيف عرف الضابط بالوسيلة المناسبة للاتصال بي؟!! .. لا شك أنها وسيلة عسيرة للغاية ولا يعرفها عامة الناس .. ولا حتى عامة الموتى .. وإلا لاتصل شبح كل ميت بأهله!!! .. مهلا .. لقد قرأت (هبه) - قبل موتها - مذكرات وكتب زوجها .. وربما تعلمت منها الوسيلة للاتصال بالضابط بعد موتها!!!.

أما الضابط .. فأتذكر أنه تحدث عن استصدار إذن من النيابة لتفتيش بيت زوج (هبه) .. وقد أخبرني أنه قرأ تلك الكتب

والمذكرات ثم قام بحرقها بعد أن عرف محتواها مرتكبا بذلك مخالفة قانونية جسيمة كما نعلم .. ربما تعلّم من تلك الكتب أسرار ذلك الفن المخيف واستخدمه ليتصل بي بعد موته!!! .. ثم هناك سؤال آخر بالغ الأهمية لم يطرأ ببالي سوى الآن .. كيف ماتت (هبه)؟!! .. كيف قتلها زوجها الميت أصلا؟!! .. كيف خنقها حتى الموت؟!!.

يقول العلم إن النبضات الكهربائية هي ما يتحكم في العقل البشري فالأفكار والعواطف والانفعالات هي نتاج تلك النبضات الكهربائية .. ويقول العلماء أيضا إن كل المشاعر البشرية كالحب والكراهية والشعور بالاختناق.. إلخ لها شحناتها الكهربائية الخاصة التي يرسلها المخ للجسد.. فإذا كان الزوج قد تعلم فن الاتصال بالموتى من خلال أسلاك الكهرباء وأجهزة التسجيل .. فربما استطاع أن يتحكم بالشحنات الدماغية الخاصة بالاختناق كونها شحنات كهربائية أيضا!!! .. ربما يكون قد زار زوجته في عالم الأحلام وهي نائمة بطبيعة الحال.. وتسلل إلى الموجات الكهربائية في دماغها وتحكم بها حتى تظن زوجته المسكينة أنها تختنق

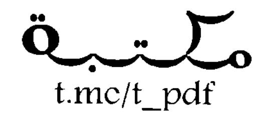
فعليا.. فالجسد يصدق ما يخبره به الدماغ .. حتى لو كان ما يخبره به الدماغ غير صحيح* .. هذه قاعدة علمية معروفة.

ربما تحكّم زوجها الميت بالشحنات الكهربائية الخاصة بدماغها أثناء نومها .. وأعطاها إشارات عصبية خاطئة توحي لها بأنها تختنق .. فزحفت تلك الإشارات العصبية إلى نخاعها المستطيل لتحاصر مركز التنفس .. فظنت المسكينة أن هناك من يخنقها بالفعل .. وهكذا لقيت حتفها .. لا أدري .. لكنه جواب منطقي وعلمي إلى حد كبير كما ترون .. وإن كان معقدا .. فهناك 13 بليون خلية عصبية في مخ الإنسان** .. وإذا كنا نرى خطوط الهاتف وشبكات الاتصالات معقدة فإن خطوط الخلايا العصبية أشد تعقيدا دون شك.

وهناك أهم نقطة في القصة كلها .. لقد بدأت أشك في موت الزوج بجرعة زائدة كما أخبرتني (هبه)!!! .. نعم.. أعتقد أنها هي من قَتَلَتَه!!!! .. ربما حقنته بجرعة مخدرات أثناء نومه مثلا أو أثناء حالة السكر .. وقد فعلت

* حقيقة.

** حقيقة.



هذا لتتخلص منه بالطبع .. وإلا .. لماذا ظل يطاردها حتى بعد موتها؟؟!!! .. لماذا كان يزورها في أحلامها ويحاول قتلها بهذا الإصرار الغريب؟!! .. أعتقد أنها هي من قتلته.. أكاد أن أقسم بذلك .. كل شيء في تفاصيل القصة يؤكد نظريتي .. لقد قتلته (هبه) بجرعة زائدة من المخدرات .. فعادت روح الزوج لتطاردها .. إلى أن تمكن من قتلها وهي نائمة بالوسيلة التي شرحتها لكم .. أما وفاة الضابط .. فلا أعلم عنها شيئا.. فربما تكون هي الصدفة الوحيدة في الأحداث!!!.

يا إلهي .. القصة محاصرة بأسئلة لا تنتهي .. ولا نملك تجاهها سوى الاستنتاج .. وإن كنت أظن أن معظم استنتاجاتي صحيحة .. الحمد لله أن الضابط قد أتلف مذكرات الزوج كي لا تقع بيد أحد .. لأن عالم الاتصال بالموتى هذا عالم مخيف كما يبدو ومن الأفضل أن نترك بابه مغلقا .. هناك أمور يجب ألا نعبث بها وإلا أصبنا بالجنون.

لكني الآن أشعر بحال أفضل بعد سماعي صوت الضابط المطمئن وهو يخبرني أنه سيحمي (هبه) .. المسكين .. رغم كل

ما فعلته معه .. إلا أنه اتصل بي أنا .. ربما لعلمه أنني سأصدقه هذه المرة .. فلو فعل هذا مع أي شخص آخر لا يعلم شيئا عن هذه القصة لما صدقه .. أعتقد أن هذا سبب اتصاله بي تحديدا .. أو ربما شعرت روحه بندمي الشديد على ما حدث .. فأراد أن يخفف عني وطأة الشعور بالذنب .. لا أعلم .. الأمر خاضع لتفسيرات عديدة.

إنني واثق الآن أن هناك أمورا كثيرة تفوق إدراك الإنسان.. يقول العلماء إننا من المفترض أن نتلقى ما يعادل 400 مليار معلومة في الثانية الواحدة .. لكننا لا ندرك قدراتنا جيدا .. لهذا لا نعي سوى 2000 وحدة معلومات تتمحور حول بيئتنا وجسدنا* .. فهناك أشياء عديدة تحدث حولنا ولا نعرف عنها شيئا .. وقصتي هذه أكبر دليل على كلامي!!!.

و .. بعد كل هذه الأفكار التي مرت في ذهني .. ومع توقفي قليلا لاستيعاب ما حدث .. ومع ظهور أشعة الشمس التي بددت الغيوم من حولي .. وجدت نفسي أقود سيارتي مرة أخرى بهدوء عائدا إلى البيت والشوارع شبه خالية .. شاعرا

---

* حقيقة.

أنني بحال أفضل بعد اتصال الضابط رحمه الله .. حتى أنني أنزلت النافذة بحركة لا شعورية .. وقلت بصوت لم يكن مسموعا بسبب الهواء الذي تشقّه السيارة بسرعتها:

- شكرا يا صديقي .. أشكرك من كل قلبي .. أرجوك أن تسامحني.

قلت هذا .. وأغلقت النافذة مرة أخرى .. وقد ارتسمت على شفتي ابتسامة حزينة وأنا أتذكر كل ما حدث في هذه القصة التي تعلمت منها أهم درس في حياتي .. وهو في نفس الوقت أهم نصيحة قد أوجهها لك عزيزي القارئ .. فلا تخشَ أن تكون شاذا في آرائك .. لأن كل رأي مقبول اليوم.. كان شاذا يوما ما .. أقول هذا الكلام لنفسي أولا بعد أن تعصبت كثيرا لرأيي العلمي ورفضت كل ما أخبرتني به (هبه) .. لكني أدركت الآن حجم الخطأ الذي ارتكبته .. فلو كنت قد بقيت إلى جانب الضابط على الأقل بعد موت (هبه) وصدقت كلامه.. فربما كنت سأفعل شيئا .. أقول ربما.

سأحاول أن أعيش حياتي مرة أخرى بعد هذه الأحداث

الرهيبة .. مستفيدا من الدروس التي أتعلمها كل يوم .. ومن تلك الحالات التي تمر علي في المستشفى باستمرار .. حالات نادرة!!.



هاربة

تحكيها: (خلود)

بدأت أحداث هذه القصة من خلال زيارة غير متوقعة لقسم الطوارئ عندما كنت أتم نوبتي المسائية .. حيث كان الوقت متأخرا للغاية والساعة تقترب من الواحدة بعد منتصف الليل.. والمستشفى هادئا تماما حتى تكاد لا تصدق أن هذا المكان سيصبح بمثابة خلية نحل بعد ساعات قليلة من الآن.

كنت جالسا في مكتبي أعبث بهاتفي النقال شاعرا بشيء من الملل .. منتظرا انتهاء النوبة المسائية كي أعود إلى البيت وأنام كما لم أنم من قبل .. قبل أن ينقطع حبل أفكاري فجأة.. عندما سمعت طرقا خفيفا على الباب .. وإذا بالممرضة تخبرني بنبرة يشوبها الاستغراب الواضح عن وجود فتاة صغيرة لا يتجاوز عمرها على الأرجح الثانية عشرة عاما تريد مقابلتي!!! .. الغريب في الأمر أنها جاءت إلى المستشفى بمفردها كما تقول الممرضة!!! .. بالطبع أثار الأمر اهتمامي وفضولي كثيرا .. زيارة فتاة بمفردها بهذا العمر وبمثل هذه الساعة أمر مريب دون شك .. لذا طلبت من الممرضة أن تسمح لها بالدخول شاعرا أنني على أعتاب قصة جديدة .. قصة تستحق أن أكتبها لكم.

لحظات قليلة .. قبل أن تدخل الفتاة أخيرا إلى مكتبي .. كانت رقيقة وهشة للغاية .. خائفة ومرتبكة بشكل ملحوظ .. نحيلة إلى حد ملحوظ أيضا .. وشعرها مربوط على طريقة ذيل الحصان الشهيرة .. إنها في بدايات سن المراهقة .. ربما لا يتجاوز عمرها الثانية عشرة بالفعل كما قالت الممرضة.

شعرت بتعاطف كبير أمام نظراتها القلقة الباحثة عن الأمان!!! .. وكأنها تنتظر موقفا مناسبا كي تبكي بسببه.. لذا فقد نهضت من مكتبي وتوجهت ناحيتها لأصافحها بابتسامة عريضة وأمسح على رأسها لأشعرها بالأمان .. تماما كما نفعل مع الأطفال الصغار .. ثم طلبت منها أن تجلس وتسترخي .. فجلست بشيء من القلق .. وراحت تنظر إلي بتردد واضح .. لتقول أخيرا بتوتر شديد لا يتناسب أبدا مع صغر سنها:

- عـ .. عـ .. (عمّي) ..أرجوك ساعدني .. أنا لا أعرف أين أذهب!!!.

قلت لها بابتسامة عريضة وقد بدا لي لقب (عمّي) هذا مضحكا إلى حد ما:

- أنا هنا لمساعدتك يا (ابنتي) .. ماذا تريدين؟!.

لم أخاطب أحدا من قبل بلقب (ابنتي) أو (ولدي) .. لذا بدا لي الأمر غريبا إلى حد ما .. المهم أنه بعد كلماتي تلك.. انهمرت دموع الفتاة بشكل مفاجئ وسريع!!! .. تماما كما توقعت .. وكأنها كانت تبحث عن الحضن الدافئ الذي تستطيع اللجوء إليه .. وقد وجدت هذا في شخصي المتواضع كما يبدو!!!.

نهضت من مكاني مرة أخرى .. وذهبت لأربت على رأسها مهدئا .. لكن الفتاة نهضت من مكانها أيضا وراحت تحتضنني بحرارة وهي تجهش بالبكاء وبشكل أثار شفقتي كثيرا حتى دمعت عيناي تأثرا!! .. يا إلهي .. أي مأساة تمر بها هذه الصغيرة؟؟!.

رحت أحتضنها بتأثر شديد وأحاول تهدئتها .. ثم طلبت منها أن تذهب لتغسل وجهها كي تتمكن من الكلام وتشرح لي سر مجيئها .. فنفذت ما طلبته منها .. لتهدأ أخيرا بعد دقائق قليلة .. وأجد الفرصة سانحة لأسألها:

- ما بك يا صغيرتي؟؟! .. لماذا خرجت من البيت وحدك؟!.. أين والداك؟!.

نظرت إلي بحزن شديد .. ثم قالت بتلعثم واضح:

- إنني .. لقد .. لقد هربت من البيت!!! .. والداي .. والداي توفيا منذ زمن بعيد .. بعد ولادتي بشهور قليلة في حادث سير.

سألتها بتعاطف:

- إذا .. أين تعيشين الآن؟!! .. ولم هربت يا عزيزتي؟!.

قالت بأسى:

- أعيش عند خالتي .. وقد .. وقد هربت منها!!.

طلبت منها أن تخبرني بتفاصيل قصتها ووعدتها أنني سأصغي إليها وأقف إلى جانبها وأساعدها بكل ما أستطيع.. فنظرت إلي طويلا وكأنها تزن أمرا ما في عقلها .. ثم حسمت أمرها أخيرا .. وراحت تروي قصتها قائلة:

- (عمّي) .. إنني في الثانية عشرة من عمري .. وقد توفي والداي في حادث سير عندما كان عمري لا يتجاوز بضعة

شهور كما قلت لك .. فأخذتني خالتي المطلّقة لأعيش عندها منذ ذلك الحين .. حيث قامت بتربيتي طوال تلك السنوات .. إنها قريبتي الوحيدة .. لكنها .. لكنها ليست امرأة صالحة .. إنها غريبة الأطوار .. طوال حياتها تكره الرجال كثيرا .. إذ عانت حياة قاسية للغاية مع جدي الذي كان يرتكب كل الخطايا .. ويعود بعدها إلى البيت فيوسع جدتي وخالتي ضربا ويسيء إليهما بكل الوسائل .. حتى ماتت جدتي قهرا بسبب سوء معاملته لها.. أما خالتي.. فاستمر جدي يسيء معاملتها ويضربها أحيانا كثيرة لأسباب تافهة للغاية .. لقد كان .. لقد كان ساديا!!!.. نعم .. هذه الكلمة ذكرتها لي خالتي أكثر من مرة .. وقد أخبرتني أيضا أن جدي قام بتزويجها لصديق له يكبرها بـ 20 عاما على الأقل .. ولم يكن هذا الصديق أقل سوءا من جدي .. إذ راح يتفنن في ضرب خالتي .. ويفعل ما يفعله أي زوج يعود إلى البيت في وقت متأخر وبعقل غيبته المخدرات تماما .. إلى أن مات بعد سنوات بجرعة زائدة.. مات معدما غارقا في الديون بسبب ما أنفقه على المخدرات و ...

كانت تتحدث وكأنها امرأة ناضجة وتخبرني بمصطلحات لا يمكن أن تخرج من لسان فتاة في سنها .. فقاطعتها بشفقة حادة وأنا أقول:

مهلا يا صغيرتي.. إنك في الثانية عشرة من العمر كما تقولين .. كيف تعرفين كل هذه الأمـور؟! .. هذه أشياء لا يتحدث فيها سوى الكبار!!.

ردت بصوت باك وقد عادت دموعها للانهمار:

- لقد أخبرتني خالتي بكل هذا .. بل وكانت تكرر لي هذا الكلام كثيرا .. تقريبا كل يوم .. حتى تغرس في ذهني كراهية الرجال .. لقد حفظْت كل ما كانت تقوله عن ظهر قلب .. فعلمتني أن الرجال شر مطلق .. وأننا يجب أن نبتعد عنهم ونتجنبهم ولا نكلمهم ولا نراهم!!! .. فهي لم تجد الخير من والدها أو من زوجها ولا حتى من شقيقها (خالي) الذي يكبرها سنا والذي تركها تتعذب مع زوجها دون أن يطرف له جفن .. إذ كان يعيش حياته الخاصة بعيدا تماما عن والديه وشقيقته .. كما ترى .. لقد كانت خالتي

تشعر أن سبب تعاستها في هذا العالم هم الرجال.. هذا ما راحت تردده على مسامعي طوال الوقت .. منذ بدأت تعلمني الكلام.

يا إلهي .. خالتها هذه تعاني بالفعل من فوبيا الذكور أو (الأندروفوبيا) كما نطلق عليها*!!! .. سألتها باهتمام شديد وقد صدمت تماما من كل ما قالته:

- ولكن يا عزيزتي .. ماذا عن المدرسة؟!! .. ماذا عن خروجك إلى الشارع مثلا .. لا بد وأن يكون هناك احتكاك بالرجال بشكل أو بآخر!!!.

قالت بأسى:

- أنا لم أذهب إلى المدرسة في حياتي!!!!! .. ولم أخرج من البيت من قبل .. سوى الآن يا (عمّي) .. لقد كنت

---

* فوبيا الذكور (Androphobia) هي أحد أنواع الفوبيا بالفعل .. وهي مرتبطة بخوف المرأة الشديد من الرجال كما هو واضح من الاسم .. وقد يصل بها الأمر إلى الإصابة بارتعاشات عنيفة وعرق غزير وأعراض قد تبلغ حد التخشب أو حتى الوقوع في غيبوبة قد تنتهي بالوفاة إذا ما تواجد بقربها رجل .

أقضي أوقاتي كلها في الرسم والقراءة .. فلا يوجد في بيتنا حتى جهاز تلفزيون لأن خالتي متدينة جدا .. وترى أن التلفزيون من عمل الشيطان كما تقول دائما.

رحت أردد في ذهول:

- هذا مستحيل .. مستحيل .. هل تريدين أن تقولي إنني أول رجل تتحدثين إليه في حياتك؟!!!.

أومأت برأسها إيجابا ببراءة .. وراحت تكمل:

- نعم .. عدا مرات قليلة .. حين كانت خالتي تطلب السبّاك أو فني الكهرباء مثلا لإصلاح مشكلة ما .. ولا أنسى أنها كانت تعاملهم بجفاء واضح فقط لأنهم رجال .. كما ترى.. لقد عزلت نفسها تماما عن العالم وعزلتني معها.. فهي تقضي جل وقتها في القراءة أو الحياكة .. وأحيانا الجلوس والتأمل.. أو حتى الحديث معي عن مساوئ الرجال وقبح العالم الخارجي!! .. أما احتياجات البيت فتطلبها من الخادمة التي تذهب إلى السوق المركزي في فترات متباعدة لشراء كل ما يلزمنا .. إنها لا تسمح لي بالخروج أبدا .. فتقفل باب البيت

طوال الوقت وتحتفظ بالمفتاح في مكان سري أجهله رغم أنني لم أفكر يوما في البحث عنه أصلا .. ربما لأنني لم أفكر بالهرب من قبل لأن خالتي لا تسيء معاملتي ولا تضربني.

قلت بعصبية:

- بل هي حقيرة .. لقد أساءت معاملتك كثيرا يا صغيرتي !!!.. خالتك هذه يجب أن تعاقب لما فعلته بك .. لقد حرمتك من التعليم .. حرمتك من الحياة كفتاة طبيعية .. هذا لا يحتمل .. كيف احتملت الحياة معها طوال تلك السنوات؟!.. و ....

لم أكمل عبارتي .. بل سكت فجأة وقد تذكرت أمرا هاما .. فسألتها بحذر:

- إن حياتك تبدو رتيبة مكررة لا يفترض أن يستجد فيها أي جديد .. فلماذا هربت من خالتك الآن تحديدا؟! .. لا شك أن تطورا ما قد حدث!!! .. ثم كيف وصلت إلى مستشفى الطب النفسي يا صغيرتي؟!! .. ومن ساعدك على الهرب؟؟!.. أرجوك أخبريني بكل شيء دون استثناء .. يا إلهي .. إن

قصتك تذكرني كثيرا بطفلة أميركية قرأت عنها ذات يوم*.

* في عام 1932 ولدت طفلة أمريكية تدعى (آنا) في إحدى قرى ولاية (بنسلفانيا) .. إذ كانت هذه الطفلة ثمرة لعلاقة غير شرعية .. وقد كان جدها (والد أمها) فلاحا كاثوليكيا متعصبا لم يقبل بوجود حفيدة غير شرعية له .. ولكي يتفادى رؤيتها بعد أن هربت والدتها وتركتها في رعايته.. قام بسجنها في إحدى غرف المؤونة القابعة في الطابق العلوي لبيته والتي لا تحوي أية نافذة باستثناء فتحة صغيرة يدخل منها الهواء وبعض أشعة الشمس .. إذ لم يسمح لأحد برؤيتها على الإطلاق .. وكان يلقي لها الطعام والشراب وينظف قاذوراتها فحسب .. تماما كما نفعل مع أي حيوان!!! .. وعندما بلغت (آنا) السادسة من عمرها .. اكتشف بعض المارة وجودها بالصدفة .. فأبلغوا السلطات المسؤولة عن حماية الأطفال في الولاية .. وعندها فقط.. هاجم الشرطة بيت الجد وعثروا على الطفلة في أسوأ حال ممكن!!!.. إذ لم تكن (آنا) آنذاك سوى شبح لا يملك من صفات البشر سوى الهيئة الخارجية!!! .. لقد كانت تلك الحادثة بمثابة قضية الساعة في ذلك الحين.. حيث تناقلتها الصحف ووسائل الإعلام بكثافة .. وبالطبع راح الأطباء النفسيون يدرسون حالة الطفلة التي لم تكن تفهمهم أو تتحدث معهم إطلاقا لعدم تعلمها أبجديات الكلام .. لكنها كانت تصدر صوتا غريبا بين الحين والآخر لم يفهمه أحد على الإطلاق!!! .. وبعد دراسة طويلة لحالتها .. اكتشفوا أن ذلك الصوت ما هو إلا صوت هدير القطار الذي كان يمرّ على بعد ميل واحد من بيت جدها مرتين في اليوم والذي يبدو أنه الصوت الوحيد الذي كانت تسمعه تلك المسكينة خلال حياتها!!!. لقد تفرغت طبيبة نفسية لدراسة حالة (آنا) .. وحاولت بكل جهدها أن تعيد تأهيل تلك الطفلة .. لكن محاولاتها باءت بالفشل .. لتموت (آنا) بعد ثلاث سنوات من العثور عليها .. وقد استنتج علماء النفس والسلوك من خلال هذه القصة أن الإنسان لا يولد إنسانا .. وإنما مخلوقا قابلا للتأنيس .. لكنه يتبرمج لاحقا من قبل المحيطين به .. تماما كما يحدث مع أطفالنا.

نظرت إلي في حيرة وهي لا تعرف ما أتحدث عنه .. فهزت كتفيها بشكل طفولي كناية عن عدم فهمها .. لتكمل قائلة:

- كنت أجهل كل شيء تقريبا عن العالم الخارجي .. وأظن أنني أعيش حياة طبيعية بهذه الصورة .. فالبيت هو المكان الآمن من كل الشرور ومن الرجال الشياطين كما كانت خالتي تصفهم دائما!!! .. إلى أن جاء ذلك اليوم .. كان هذا منذ حوالي أسبوع فحسب .. عندما كنت في غرفتي وقد أخذت حماما دافئا بعد استيقاظي من النوم بفترة بسيطة.. فرحت أنشف جسدي .. قبل أن تفتح الخادمة باب الغرفة فجأة .. مما أشعرني بحرج بالغ لأنني كنت عارية تماما .. فاختبأت سريعا خلف باب الدولاب المفتوح.. وأعتقد أن الخادمة قد شعرت بحرج شديد لأنها قالت كلمات مرتبكة لم أفهمها ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها .. ليمر بعدها اليوم عاديا للغاية كأي يوم آخر من حياتي إلى أن حان موعد النوم لأذهب بعدها إلى الفراش .. ولكن .. في وقت متأخر من الليل .. وأثناء نومي.. شعرت أن هناك يدا تهزني بعنف.. مع صوت

خافت يطلب مني الاستيقاظ!!! .. فاستيقظت بشيء من الذعر .. لأرى الخادمة وهي تنظر إلي بقلق واضح.. ثم راحت تحاول أن تهمس في أذني بهدوء شديد وتطلب مني عدم الصراخ حتى لا تستيقظ خالتي!!.. نظرت إليها دون فهم .. فقالت شيئا مخيفا لا يصدق .. إذ قالت بصوت منخفض للغاية وبلغة عربية ركيكة لكنها مفهومة ((عزيزتي.. أرجوك لا تخشي شيئا .. إنني أحبك كابنتي.. وتعرفين جيدا أنني مقيمة هنا منذ سنوات طويلة وأقوم على خدمتك أنت وخالتك على أكمل وجه .. لذا أرجوك أن تثقي بي وبما سأقوله لك رغم أنه لا يصدق .. أنت .. أنت .. أنت لست بنتا .. أنت ولد!!!!!!!!!)).

قفزت من مكاني بذعر حقيقي عندما قالت الفتاة هذه الجملة .. وكأن هناك من صعقني بالكهرباء فجأة .. فقلت بذهول وعيناي متسعتان على آخرهما:

- يا إلهي .. مـ .. مـ .. ماذا؟!!! .. أنت .. أنت ولد؟! .. هل هذا حقيقي؟؟!.

راحت الفتاة (أو الولد) تبكي فجأة .. وهي تقول:

- نعم!!!! .. تخيل أنني بعد 12 عاما من عمري .. أكتشف فجأة أنني ولد .. وقد قامت خالتي طوال تلك السنوات بتربيتي على أساس أنني بنت .. كانت هي من تشتري ثيابي .. وهي من تستبدلها .. بل وتساعدني على الاستحمام طوال سنوات طفولتي .. لم يرني أحد عارية من قبل سواها.. إلى أن رأتني الخادمة صدفة عندما كنت أقوم بتبديل ثيابي بعد الاستحمام في الأسبوع الماضي.. لقد شعرت بصدمة حقيقية كما أخبرتني .. لكنها تصرفت بصورة طبيعية كي لا تعرف خالتي أن خادمتها قد كشفت الأمر.

سألته وقد وقفت في مكاني دون أن أشعر من هول ما سمعت:

- وماذا حدث بعد ذلك يا صغيري؟!.

قال وهو يرتجف بعنف:

- أقسمت لي الخادمة أنني ولد ولست بنتا .. وعلمتني الفارق التشريحي بين الجنسين!!! .. ثم طلبت مني أن ألتزم الصمت تماما وألا أفعل أي شيء .. وقالت لي إن خالتي إنسانة مجرمة ومريضة .. وأقسمت أنها ستساعدني.. في

البداية لم أصدقها .. فقد كنت أحب خالتي كثيرا .. لكني أحب الخادمة أيضا وأثق بها .. فهي (مع خالتي) كل من أعرف في هذا العالم!!! .. كما أنني رأيت الصدق في عيني الخادمة .. ولم يكن هناك بد من تصديقها على كل حال بعد أن عرفت الفارق التشريحي بين الولد والبنت.. وأمام نظراتي المذعورة .. احتضنتني الخادمة وراحت تبكي وتقول إنها ستأخذني إلى المخفر للإبلاغ عن الجريمة التي ترتكبها خالتي بحقي كل يوم!!!.. لكن .. أصدقك القول إنني شعرت بالذعر حين عرفت منها أن المخفر مليء بالرجال .. فقد زرعت خالتي في قلبي رعبا هائلا منهم.. وهذا ما جعلها تلغي تلك الفكرة.. فطلبت مني الصمت إلى أن تفكر بالأمر وتخبرني عما يجب فعله بعد أيام قليلة.

ساد المكان صمت طويل بعد هذا الكلام .. قبل أن يقول الفتى متلعثما:

- وبعدها ببضعة أيام .. ذهبت الخادمة إلى السوق المركزي.. وقضت هناك وقتا طويلا على غير العادة.. فاعتذرت

لخالتي كثيرا عند عودتها وتعللت بالزحمة الشديدة هناك.. لكنها في الواقع تأخرت لأنها كانت تبحث عن حل لمشكلتي!!!.. فراحت تسأل بعض العاملين في السوق المركزي من جنسيتها عما يجب فعله .. وأخبرها أحدهم أن اللجوء إلى مستشفى الطب النفسي قد يكون حلا مناسبا .. فحصلت بعد سؤالها لزملائها على عنوان المستشفى .. ثم وضعت في يدي مفتاح البيت بعد أن قامت بعمل نسخة منه دون علم خالتي .. ووضعت في يدي أيضا عملة نقدية وطلبت لي سيارة أجرة من هاتفها النقال الذي اشترته بالسر دون علم خالتي أيضا .. لتساعدني أخيرا على الهرب بعد أن اعتذرت بشدة عن ذهابها معي كونها أجنبية ولا تريد التورط بشيء .. وأن قضيتي واضحة لا تحتاج إلى شهود كما تقول .. لقد حدث كل هذا منذ ساعات قليلة.. لأصل إلى هنا وأجد نفسي أمامك .. أنت أول رجل أتحدث إليه في حياتي يا .. (عمّي)!!!.

عزيزي القارئ.. لا يمكن أن أصف لك حالة التعاطف التي عشتها مع ذلك الصبي .. لا يمكن .. كانت مشاعري

متضاربة.. كرهت العالم بأكمله بسبب ما يفعله بعض أولياء الأمور .. حتى إنني نهضت من مكاني واحتضنت الولد بقوة مرة أخرى .. وأخبرته أنني سأكون إلى جانبه مهما حدث .. ثم اتصلت بالشرطة مباشرة .. وأخبرتهم بكل شيء.

وفي اليوم التالي فحسب .. جرت باقي الأحداث تماما كما هو متوقع .. إذ تم القبض على خالة الولد والتحقيق معها بضعة أيام .. ومن ثم إيداعها في مستشفى الطب النفسي تحت ملاحظة زميل لي .. حتى إنني سمعت أنها أصيبت بانهيار عصبي مع التتابع السريع والمفاجئ للأحداث!!! .. الغريب أنني لم أشعر بأي فضول لرؤية تلك المجرمة التي كادت أن تدمر حياة طفل صغير بسبب عقدها النفسية!!! .. إن ما فعلته يندرج تحت بند (إيذاء الأطفال) وهي جريمة خطيرة في الدول المتقدمة وعقوبتها صارمة جدا*.

وقد كان لا بد من إيداع الولد بدوره إلى المستشفى ليكون تحت إشرافي .. سيحتاج إلى جلسات علاجية طويلة دون

* حقيقة بالطبع ويطلق على هذا النوع من الجرائم اسم (Child Abuse).

شك لتنظيف حالته النفسية -إن صح التعبير- من مخزون الشوائب التي تشرّبها طوال السنوات الماضية من خالته.. أتذكر أنـه أصيب بالذعر حين علم أنـه سيقضي وقته في المستشفى تحت إشرافي .. إذ سألني بقلق:

- إذا ذهبت معك يا (عمّي) .. ماذا سيحدث لي؟! .. أين سينتهي بي المطاف؟!!.

رددت عليه وأنا أربت على شعره:

- أنت في مستشفى حكومي يا صغيري .. وبعهدة الحكومة الآن .. والأهم من كل هذا أننا سنكون معا ولن أتخلى عنك أبدا .. هذا أهم ما بالأمر .. وكل ما أضمنه لك!!!.

ثم سألني وكأنه لا يزال يحمل في قلبه الكثير من الشك بالرجال وهو نتاج سنوات من غسيل المخ كما علمنا:

- لماذا تريد مساعدتي يا (عمّي)؟؟!.

نظرت إليه طويلا .. ثم قلت:

- لأنه عملي .. وبسبب الطريقة التي تنظر بها إلي يا صغيري.. سأكون شخصا تستطيع أن تثق به .. لا تخشَ شيئا بعد الآن.

قلت كلامي هذا .. وتم بعدها مباشرة إيداع الولد في المستشفى فعليا تحت ملاحظتي الشخصية .. وقد اتضح أن اسمه (خالد) .. وليس (خلود) كما كانت تناديه خالته دائما.. يا إلهي .. ستكون أمام هذا المسكين فترة طويلة من التأهيل النفسي حتى أمسح من ذهنه كل ما تعلمه .. سأحاول أن أعيد تربيته إن صح التعبير .. وهي مهمة لن تكون سهلة.. لكن هذا جزء من عملي على كل حال .. وأنا أثق تماما أنني سأنجح بتأهيل (خالد) ليعيش حياة طبيعية ويتأقلم مع حقيقته التي اكتشفها للتو.

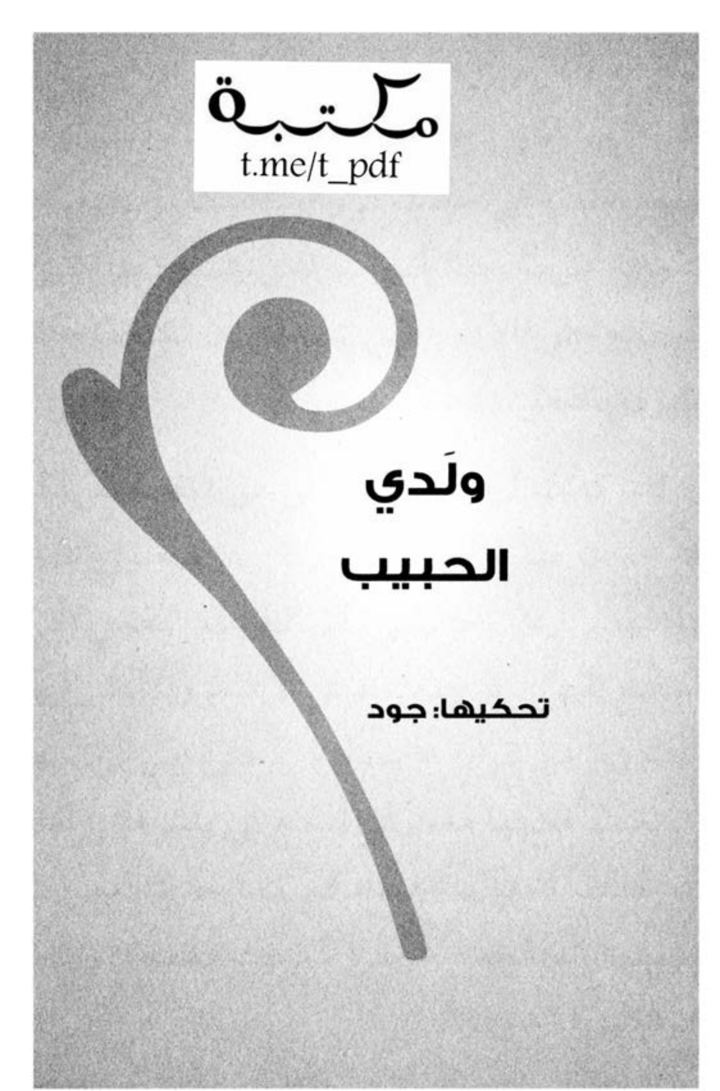
ولا أنسى هنا مقولة أحد أشهر الأطباء النفسيين: ((فعالية الدواء لا تتعلق فقط بخصائصه الكيميائية .. إنما بمدى إيمان المريض بقدرة ذلك الدواء على شفائه)) .. وأنا أرى أن الصبي سيثق بي تماما مع مرور الأيام .. وأنه سيتجاوب مع العلاج النفسي ليغدو صبيا طبيعيا .. هذا ما آمله وأتوقعه!!!.

لقد ظللت أتساءل طويلا .. هل يعقل ألا يكتشف الصبي حقيقته طوال تلك السنوات؟!! .. لكن .. عندما تذكرت قصة الطفلة الأمريكية (آنا) والتى تحدثت عنها فى سياق القصة..

تذكرت أن الإنسان بطبيعته يقبل الواقع كما يراه حوله ولا يتساءل عن ماهيته وأسراره.

إنه أمر غريب بحق .. لقد أصبح العالم بأكمله خليطا من الثقافات واللغات .. فكلما تقدمت وسائل الاتصال سنتقارب نحن البشر فيما بيننا .. وبالتدريج سننصهر جميعا في ثقافة عالمية واحدة.. فنحن نعيش الآن في عالم حيث الحدود والحواجز بين الدول والأفراد تتلاشى شيئا فشيئا .. تخيلوا بعد كل هذا.. نرى من لا تزال تحبس الأطفال في مكان واحد وتعزلهم عن العالم لتبث في عقولهم تلك الأفكار المسمومة!!!.

إنها واحدة من تلك القصص التي تجعلك تكره الواقع.. تكره المجتمع .. تجعلك تشعر للحظة أنك تعيش في زمن أسود اختفت منه البراءة .. وأصبحت مرادفا للضعف والسخافة .. وهو أمر مخيف .. مخيف للغاية .. ربما لهذا أرفض الزواج.. أرفض الإنجاب خوفا على مصير أولادي الذين ستموت براءتهم مع مرور الأيام كما يحدث معنا جميعا .. و .. كما أقول دائما .. إنني طبيب نفسي .. بحاجة إلى طبيب نفسي.



ولَدي الحبيب

تحكيها: جود

قصتنا هـذه ستكون مع (جـود) .. وهـي فتاة تبلغ الـ 20 من العمر .. أي أنها في أواخـر فترة المراهقة.. لكن (جود) هذه متزوجة .. ولديها ولد صغير فقدته في حادث مروع .. حيث مرت بعدها بتجربة غريبة جدا أثـارت لدي تساؤلات كثيرة لـم تنته حتى الآن.. فهي تستحق أن تكون (حالة نادرة) بالفعل.

لقد كانت (جود) تحتاج إلى من (تفضفض) له بما حدث لها في تلك التجربة من تفاصيل تثقل كاهلها.. وقد اختارتني أنا الطبيب النفسي كي أستمع إليها .. فوجدت نفسي لا شعوريا أنظر إليها مصدوما من غرابة ما سمعته .. حتى إنني رجوتها أن تكتب قصتها هذه وأن تسمح لي بنشرها .. آملا أن تجذب أحداثها اهتمامكم كما حدث معي .. فلنقلب الصفحة .. ونقرأ أحداث القصة .. تماما كما كتبتها (جود).

منذ وفاة ولدي الحبيب الذي لم يتجاوز عمره السنتين وأنا أعيش في عالمي الخاص .. ما زلت عاجزة عن استيعاب فكرة موته رغم أنني رأيته يموت أمامي .. رأيته وهو يغرق في حوض السباحة في ذلك النادي اللعين أمام عيني!!! .. حاولت أن أنقذه .. قفزت في الماء بكامل ثيابي ورحت أسبح بجنون كي أصل إليه .. لكنني كنت متأخرة .. وصلت إليه بعد أن فارق الحياة.

يا إلهي .. لا يمكن أن أنسى تلك اللحظات المخيفة وأنا أرى ولدي ممدا أمامي بعد أن أخرجناه من حوض السباحة جثة هامدة .. فبدا لي وكأنه دمية صغيرة مبللة خالية من الحياة. كنت أصرخ بهستيريا* دون توقف .. وقد التمّ الناس حولي

---

* في الواقع أن لفظة هستيريا مشتقة من كلمة (رحِم) باللغة اللاتينية .. حيث كان الناس في السابق يظنون أن المرض مقصورا على النساء فقط.. واعتقدوا أن الرحم سببه .. وبالطبع لم يكن هذا الكلام صحيحا.. فالهستيريا كما يعرفها علم النفس الحديث هي هروب من ضغط نفسي شديد تتعرض له شخصية غير ناضجة .. وقد يصل الأمر إلى أسوأ صورة فيصاب الإنسان بنوع من انفصام الشخصية .. أو يصاب بصداع هستيري.. عمى هستيري .. أو حتى شلل هستيري .. فيتصلب تماما وكأنه جثة هامدة .. مما يتطلب إسعافه فورا كي لا تحدث أي مضاعفات أخرى.

في محاولات يائسة لتهدئتي .. لكني ظللت أصرخ وأخبرهم أن ولدي هو كل ما أملك .. هو كل حياتي .. لقد ظل في أحشائي 9 شهور جوار قلبي .. بل إن جزءا من روحي موجود في روحه .. روحه التي خرجت ولن تعود!!!.

لقد شعرت للحظة أنني سأصاب بانهيار عصبي لا محالة .. خاصة بعد أن رأيت رجال الإسعاف ينقلون جثته إلى سيارتهم وقد تمت تغطية جسده بالكامل .. مشهد مخيف رهيب يصيبنا بقشعريرة لو رأيناه يحدث لشخص لا نعرفه.. فما بالكم لو .. حدث لطفل صغير؟؟! .. ماذا سيحدث لوالدته وهي ترى كل هذا أمام عينيها؟؟!! .. الأمر متروك لخيالكم!!!.

لقد كان هذا المشهد هو آخر ما رأيته قبل أن أشعر أن الدنيا تدور بي وأن الدماء تتوقف في دماغي لأقع على الأرض فاقدة الوعي.

أتذكر جيدا حين أفقت بعد ذلك لأجد نفسي في المستشفى.. أنظر إلى العالم بعينين حمراوين تدوران حول محجريهما والدموع تنهمر منهما دون توقف .. فقضيت هناك

ساعات طويلة اطمأن فيها الأطباء على صحتي قبل سماحهم لي بالخروج برفقة زوجي .. لكنهم لم يفحصوا حالتي النفسية بالطبع .. ولم يعرفوا إلى أي مدى كنت أشعر بالانهيار .. فأبكي للحظات .. ثم أضحك للحظات أخرى شاعرة أنني أقترب كثيرا من الجنون وفي زمن قياسي!!!.

لتأتي بعد كل هذا أيام العزاء الكئيبة .. عندما كان جميع الأقارب والأصدقاء موجودين حولي .. وكان زوجي يحاول أن يبدو قويا متماسكا أمامهم .. لكني كنت أرى دموعه تغالبه بين الحين والآخر حين يظن أن أحدا لا يراه .. أما أنا فكنت أنظر إلى جميع أقاربي دون اكتراث .. عالمة أن لحظات التعاطف والحزن هذه ستنتهي بعد نهاية العزاء!!!.

هكذا تسير أيام العزاء دائما .. في أول يوم يعيش أهل المتوفى الصدمة وقد قتلتهم اللوعة .. في اليوم الثاني نجد هناك جوا من الهدوء والقبول بالنصيب مع ابتسامات حذرة حزينة .. في آخر أيام العزاء تجدهم يضحكون ويمرحون وقد نسوا كل شيء عن الفقيد العزيز واستعدوا للعودة إلى حياتهم الطبيعية!!!.

أما أنا .. فكنت واثقة تماما أن أحزاني لن تنتهي ولن أتقبل أمر وفاة ولدي الحبيب على الإطلاق .. إذ رحت أقضي الوقت كله في غرفته .. ألعب في ألعابه .. أنام بالقرب من سريره .. أقرأ له القصص .. أعامله كأنه موجود .. فأتخيل وجوده في الغرفة وأتحدث معه وأتجاوب بحنان مع كلماته القليلة التي كان يتعلم نطقها قبل وفاته .. أتحدث مع صوره التي أتلفتها دموعي .. بل ورحت مع مرور الأيام أشتري له الهدايا في المناسبات .. وأشتري له بين الحين والآخر ثيابا تتناسب مع عمره لو كان حيا!!!.

كنت أفعل هذا دون توقف .. حتى بدأ زوجي يخشى على حالتي النفسية كثيرا .. وأخبرني صراحة أنه يخشى أن أكون في طريقي لفقدان عقلي!!! .. فحاول المسكين أن يخرجني من تلك الدوامة وأن يساعدني لأتجاوز محنتي وأقبل في قضاء الله وقدره .. فاقترح أن نتبرع بثياب ولدي إلى الأسر المحتاجة .. وأن نعطي ألعابه لمن يريد من أطفال أقاربنا .. على أن نسافر بعد ذلك بعيدا عن كل شيء لنشحن طاقاتنا لحياة جديدة.

ماذا كانت ردة فعلي تجاه كلامه؟؟!! .. لقد أغلقت الباب في وجهه بقسوة وغلظة .. ورحت أطلب منه بصراخ هستيري أن يتركني وحدي في غرفة ولدي .. إذ لم أحتمل اقتراحاته تلك ولم أقبل حتى مناقشتها .. بل اتخذت بالمقابل جانبا عدائيا من زوجي .. حتى تشاجرت معه بعد مرور 4 شهور على وفاة ولدي وطردته من الشقة في خلافنا الأخير .. فشعر باليأس من حالتي على حد قوله .. ورحل عني حزينا مهموما.. بل وأرسل لي ورقة الطلاق بعدها ببضعة أسابيع .. خاصة بعد أن عزلت نفسي عن العالم بأكمله .. ورفضت تماما فكرة الذهاب إلى طبيب نفسي كما كان الجميع يقترح.

والواقع أنني لم أكترث إطلاقا لحمل لقب (مطلقة) في هذا العمر المبكر .. إذ كنت أريد البقاء مع روح ولدي فحسب.. أعيش في غرفته .. في ذكراه .. وكنت سعيدة راضية بذلك .. ولا أنسى أن أذكر أن والدي وأشقائي قد طلبوا مني أن أترك الشقة للإقامة في بيت العائلة بعد طلاقي .. لكني رفضت تماما .. ووقفت بوجه الجميع في عناد غريب لم أظن يوما أنني أملكه .. فكيف أترك المكان الذي يحوي ذكريات ولدي الحبيب؟؟! .. كيف؟!!.

مرت بعدها أيام طويلة على حدوث الطلاق دون أن يتغير شيئا في حياتي التي اخترتها لنفسي والمحصورة في ذكرى ولدي فحسب .. قبل أن أجد نفسي أمام أحداث جديدة وتطورات خطيرة جعلتني أنزلق إلى عالم غامض مجهول لم أعرفه من قبل!!!.

كان هذا عندما بدأت تلك الأحلام الغريبة بالظهور في منامي وباتت تتكرر في كل ليلة بإصرار غريب!!! .. نعم .. إذ راح ولدي يظهر لي في أحلامي باستمرار دون توقف .. كان يظهر لي دوما حزينا يبكي بأسف يقتلني قتلا ويزيدني لوعة في كل مرة أستيقظ فيها من النوم وأتذكر تفاصيل الحلم.

كنت واثقة أن روحه تزورني في عالم الأحلام لتوجيه اللوم لي!!! .. إنه يلومني على إهمالي الذي جعله يقع في حوض السباحة دون أن أنتبه .. قد يقول بعضكم إنني يجب ألا ألوم نفسي كثيرا .. وإننا جميعا قد نخطئ أحيانا .. لكني أقول لكم إن بعضنا قد ينسى مفاتيحه بمكان ما .. أو ربما يضيع هاتفه النقال.. أما أن تنسى الأم ولدها الصغير بالقرب من حوض السباحة في ذلك النادي اللعين وتنشغل مع صديقاتها في الحديث عن أمور نسائية تافهة؟؟!! .. فهذا لا يغتفر على الإطلاق!!!.

والواقع أن تلك الأحلام لم تكن آخر الأحداث .. بل بدايتها فحسب .. فقد كانت مجرد مقدمة لتطورات أخرى مذهلة لا تصدق .. كيف؟! .. تابعوا معي.

كنت في ذلك اليوم - كعادتي - أعيش في عالمي الخاص الذي صنعته لنفسي منذ وفاة ولدي .. أتحدث إلى الهواء متخيلة وجوده بجانبي وأمسك بإحدى ألعابه .. عندما سمعت فجأة ذلك الصوت!!! .. نعم .. لا مزاح في الأمر .. إنني لم أمزح مع أحد منذ زمن طويل .. لقد كان هذا صوت ولدي دون شك .. كنت أسمع بكاءه بوضوح شديد!!! .. ليس في الأحلام هذه المرة .. بل في عالم الواقع .. رغم أنني وحيدة في الشقة ولا يوجد أحد هنا غيري كما علمتم.

لقد توقف قلبي للحظة .. أو هذا ما بدا لي .. والتفت بلهفة مجنونة وأنا أقسم في قرارة نفسي أنني سمعت صوت بكائه جيدا .. حتى إنني رحت أركض بلوعة شديدة في كل مكان في الشقة بحثا عن مصدر ذلك الصوت دون أن أشعر بأي خوف أو حتى أفكر بموضوع الأشباح الذي لا شك أنه قد طرأ في أذهانكم جميعا!!! .. لقد أحسست للحظة أن الله سبحانه

وتعالى قد أعاد ولدي إلي!!! .. ولا يلومني أحد على هذا الإحساس .. فهو التفسير الوحيد للصوت الذي سمعته.

لكن .. لم أجد أحدا في الشقة رغم أنني بحثت في كل ركن منها .. خاصة حيث مصدر الصوت وهو غرفة نومي كما ظننت!!! .. فتوقفت أخيرا في الغرفة مشدوهة .. أنظر حولي بيأس .. ثم نظرت إلى الدولاب .. مهلا .. أعتقد أن الصوت كان مكتوما وكأنه منبعث من الدولاب!!!.

اتجهت ناحية الدولاب وأنا ألهث .. فتحت الباب سريعا لأصطدم بثيابي ولا شيء سواها .. رحت أنبش بين الثياب.. دون أن أعثر على شيء بالطبع .. لقد بدأ يراودني ذلك الشعور الغريب لأول مرة في حياتي وهو الاقتناع أنني في طريقي إلى الجنون كما قال زوجي «سابقا»!!! .. يبدو أنه لا مناص من الاعتراف .. إنني أفقد عقلي فعليا .. لا يوجد تفسير آخر غير هذا.

تدور تلك الخواطر المتضاربة في ذهني ورأسي لا يزال في الدولاب حيث أبحث في كل جوانبه بيأس شديد .. لأمر

بعدها بموجة حزن جديدة أجهشت فيها بالبكاء .. وهو أمر معتاد أمر به كثيرا منذ وفاة ولدي .. الدموع تنهمر من عيني دون توقف وتتلف ثيابي المعلقة .. قبل أن يقع بصري صدفة على ألبوم الصور العائلية الموجود في زاوية الدولاب .. ياااه.. ذلك الألبوم .. إنني لم أفتحه منذ فترة طويلة!!! .. لقد غطّت عليه فساتيني الطويلة حتى نسيت أمره تماما قبل أن أراه الآن .. أخرجت الألبوم بأسى وأنا أمسح دموعي .. وتوجهت به إلى فراشي لأطلع عليه وأستذكر الصور الموجودة فيه.

أتصفح الألبوم ودموعي لم تجف بعد .. أستذكر تلك الأيام الجميلة .. منذ حوالي 8 سنوات .. حين كنت في الـ 12 من العمر وفي بدايات سن المراهقة .. وحين كانت العائلة تذهب في أغلب أيام الإجازات إلى منتزه (الخيران) الشهير.. فكانت معظم الصور الموجودة في الألبوم قد تم التقاطها هناك.. حيث أرى صوري المتعددة وكل ما فيها يوحي بالسعادة.. يا لها من أيام لا تنسى وذكريات بعيدة كأن من عاشتها فتاة أخرى .. فأنا الآن مجرد جسد بلا حياة بعد أن رحل ولدي عن هذا العالم.. و .. وجدت نفسي أبتسم بألم!!! .. إنها المرة الأولى التي

أعترف فيها بموت ولدي في قرارة نفسي.. لقد كنت أتصرف دائما وكأنه موجود حولي.. حتى إنني خسرت كل شخص حاول أن يؤكد لي عكس ذلك.

قمت بعدها بوضع الألبوم في مكانه بعد أن تأخر الوقت.. وذهبت لأدس نفسي تحت اللحاف في غرفة ولدي كعادتي منذ وفاته .. حيث بدأت أتحدث إلى الهواء وأتخيل وجوده متدثرا باللحاف إلى جانبي في مشهد قد يخيف البعض كونه يدل دلالة واضحة على جنوني .. وربما يثير شفقة البعض الآخر .. حتى راح عقلي يغيب شيئا فشيئا في عالم الأحلام عالمة أنني سأحلم بولدي مرة أخرى ليظهر لي معاتبا حزينا.. لقد أصبح هذا أمرا معتادا كما تعلمون!!!.

ولكن .. في تلك الليلة تحديدا .. حلمت مرة أخرى بولدي بالفعل .. لكنه لم يظهر لي باكيا معاتبا فحسب كما حدث طوال الأيام السابقة .. بل حلمت به هذه المرة وهو ممسكا بألبوم الصور ذاته .. نعم .. ألبوم صور العائلة في منتزه (الخيران) الذي كنت أتصفحه قبل نومي بقليل!!!.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أراه فيها في الحلم وهو ينظر إلي بجدية لا تتناسب أبدا مع سنه الصغيرة!!! .. لقد بدا لي وكأنه يحاول أن يخبرني بأمر هام .. أو يحذرني من شيء ما .. شيء يتعلق بألبوم الصور هذا كما يبدو .. ويحاول أن يجذب اهتمامي إليه لسبب مجهول!!!.

هذا يتجاوز الحلم بكل تأكيد .. لا شك أن ولدي يتواصل معي ليخبرني بأمر ما ويريدني أن أفعل شيئا بالمقابل .. وإلا لماذا كان يظهر لي كثيرا في أحلامي في السابق دون أن يفعل شيئا سوى النظر إلي حزينا معاتبا؟!! .. ثم يأتي الآن فجأة ويظهر لي ممسكا بذلك الألبوم؟؟!.

لكن .. حتى لو كان ظني صحيحا .. فماذا يريد أن يخبرني برسالته؟؟! .. ولماذا منتزه (الخيران) تحديدا؟! .. ليتني أفهم ما يحدث لي .. ليتني أفهم!!! .. لقد تصفحت الألبوم أكثر من مرة حال استيقاظي من النوم .. ودققت النظر في صفحاته كثيرا أيضا دون أن أجد شيئا يستحق الذكر.. مجرد صور عائلية لا حصر لها والجميع ينظر إلى الكاميرا ويبتسم ببلاهة.

ظلت تلك التساؤلات تسيطر على عقلي بضعة أيام .. ثم راحت تكبر .. وتكبر .. خاصة مع ظهور ولدي المتتالي في أحلامي ممسكا بذلك الألبوم تحديدا .. الغريب أنه في كل مرة كان يبدو أكثر إصرارا .. وكأنه يريدني أن أكون هناك في موعد محدد يخشى أن أفوته!!!.

نعم .. إنه يريدني أن أكون في منتزه (الخيران) بأسرع وقت ممكن لسبب ما .. لا يوجد تفسير آخر كما ترون .. لقد قادني صوت بكائه - الذي شككت للحظة أنه وهما - إلى الدولاب حيث عثرت فيه على ألبوم الصور هذا .. ثم بدأ بعدها يظهر في أحلامي في الأيام التالية ممسكا بالألبوم ذاته.. الأمر واضح ولا يخضع لأي تفسير آخر.

لكن .. يجب الاعتراف أولا أن الأمر ليس سهلا على الإطلاق .. لم أكن أملك البال الرائق لترك شقتي حيث ذكريات ولدي الحبيب وأذهب وحيدة إلى مكان يقضي فيه الناس إجازاتهم.

إلا أنني في النهاية حسمت أمري أخيرا .. وقررت الذهاب إلى منتزه (الخيران) كما طلب مني ولدي في أحلامي!!! ..

بل وقمت بإجراءات الحجز فعليا .. على أن أكون هناك في منتصف الأسبوع القادم .. أي بعد 3 أيام من الآن.

فجلست بعدها في شقتي أنتظر اليوم الموعود دون أن يحدث أي شيء يذكر في الأيام القليلة التي سبقت ذهابي.. سوى تكرر الأحلام ذاتها .. وظهور ولدي ممسكا بألبوم الصور ذاته .. مع زيادة نظرات الإصرار والترقب في عينيه.. وكأن الموعد يقترب .. لكن أي موعد؟!! .. موعد ذهابي؟!!.. موعد آخر أجهله؟!! .. لا أعلم.

جاء اليوم الموعود أخيرا .. يوم الذهاب إلى المنتزه .. وبالطبع لم أخبر أحدا من العائلة بأمر ذهابي إلى هناك أوحتى بأمر أحلامي المتواصلة .. كي لا يتم اتهامي بالجنون بشكل رسمي هذه المرة ويأخذوني مجبرة إلى مستشفى الطب النفسي.

أتذكر جيدا عندما وصلت إلى المنتزه حيث كانت الساعة لا تتجاوز الثالثة عصرا .. فوضعت حقيبتي في صالة الشاليه الصغير الذي حجزته لنفسي .. وجلست بعدها في غرفتي أنظر حولي بضياع .. ترى .. ماذا يريد ولدي؟؟! .. لماذا كنت أرى في عينيه نظرات الإصرار وهو يمسك بالألبوم وكأنه يستحثني للمجيء إلى هنا؟؟!!. ما الذي سيحدث الآن؟!!.

خرجت من الشاليه .. ورحت أمشي وحيدة في شوارع المنتزه حيث بدا لي هادئا وخاليا إلى حد ما .. فنحن في موسم الاختبارات النهائية .. وأغلب الناس منشغلون باختبارات أبنائهم .. أما أنا فكنت في عالم آخر .. أفعل أشياء معاكسة لما قد يفعلها البشر العاديون .. وبالطبع لا أنسى أن أذكر أنني بكيت مرات عديدة - كحالي دائما منذ وفاة ولدي - وأنا أمشي في شوارع المنتزه الصغيرة .. غير مبالية بنظرات الاستغراب التي يمطرني بها كل من يراني.. حتى عمال وموظفو المنتزه!!!.. أعلم أن كل هذا البكاء والحزن أصبح مملا .. لكني أكتب لكم ما حدث بكل دقة وأمانة.

ظللت على هذه الحالة إلى أن مر اليوم الأول بسلام .. فتوجهت عائدة إلى الشاليه .. ودسست نفسي تحت اللحاف.. ثم فتحت التلفاز بلا مبالاة .. أشاهد أحد الأفلام العربية القديمة منتظرة لحظات النعاس آملة أن تأتي بسرعة .. حتى إنني لم آكل شيئا منذ الغداء .. لكني اعتدت على هذا .. إن وزني يتناقص باستمرار دون أن أكترث.

تمر تلك الخواطر في ذهني وأنا أشاهد الفيلم بدون تركيز.. حتى شعرت أن عينيّ قد ثقلتا فجأة بعد أن تأخر الوقت كثيرا.. وأنني أتثاءب وأغرق شيئا فشيئا في عالم الأحلام.

لا أعرف متى استيقظت من النوم .. ربما كانت الساعة لا تتجاوز العاشرة صباحا .. لكني أتذكر جيدا ما أيقظني.. كان هذه المرة صوت صراخ .. نعم .. صراخ ولدي!!! .. إنه يصرخ هذه المرة .. بل يبكي بأعلى صوت!!! .. مهلا.. مهلا.. يا إلهي .. هذا ليس حلما .. هذا الصوت أسمعه جيدا.. تماما كما سمعته في شقتي .. إنه صوت قريب من هنا.. أقسم أنني كدت أن أجن فعليا هذه المرة .. فقد شعرت أن ولدي الميت يحتاج مساعدتي .. جملة متناقضة للغاية لكن هذا ما بدا لي!!! .. إنه يصرخ ويبكي .. وقلبي يحترق فعليا وأنا أستمع إلى كل هذا عاجزة عن التصرف.

نهضت من مكاني كالملسوعة .. ورحت أبحث بفزع في كل مكان في الغرفة .. أحاول التركيز قليلا لمعرفة مصدر الصراخ.. لا .. إنه يأتي من الخارج .. خارج الشاليه!!!.. ارتديت ثيابي سريعا وقد طار كل أثر للنوم من عيني .. ولم أكترث لأشعة

الشمس التي آذت عيني كثيرا كوني قد استيقظت للتو .. ولم أكترث لحرارة الجو الشديدة أيضا .. كنت فقط أبحث عن مصدر الصراخ .. صراخ ولدي .. لماذا يبكي بهذه الحرقة؟؟! .. حتى لو كنت واهمة .. لا أستطيع أن أتجاهل هذا الوهم!!!.

أنظر حولي ملتاعة باحثة عن ولدي .. قبل أن .. قبل أن أعثر عليه!!!! .. لا .. لم يكن ولدي بالطبع .. بل طفل آخر لا أعرفه.. طفل لمحته في البحر وقد جرفته الأمـواج!!!.. كان يحاول أن يصرخ .. لكن وجود الأطفال حول الشاطئ مع ضجيجهم قد أخفى صراخه تماما.. كيف سمعته أنا؟!! .. هل كان صراخ ولدي هو ما قادني إلى ذلك الطفل؟!! .. لا أعلم .. لم أجد الوقت لأفكر .. ولم أجد الوقت لأستغيث بأحد .. بل قفزت مسرعة إلى البحر بكامل ثيابي أمام نظرات الاستغراب من الجميع.. ورحت أسبح كالمجنونة وألهث بكل قوتي قبل أن أصل إليه أخيرا وهو على وشك الغرق!!! .. إنه مشهد مكرر.. عشته منذ شهور قليلة عندما سبحت بكامل ثيابي لأنقذ ولدي لكني فشلت .. وها أنا الآن أسبح أيضا بكامل ثيابي وبكل قوتي لأنقذ ذلك الطفل .. و .. أمسكت به بكل قوتِي وهو يكاد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة!!!.

احتضنته بشدة .. يا إلهي .. وكأنني أحتضن ولدي نفسه.. لكن .. يجب إنقاذه أولا .. فسبحت مسرعة عائدة إلى الشاطئ حيث أرى قلة من الناس وقد تجمهروا بعد أن انتبهوا لما يحدث أخيرا .. أستطيع أن ألمح أهله وصراخهم.. في حين لمحت والدته أيضا وهي تركض آتية من داخل أحد الشاليهات وتصرخ بلوعة حقيقية!!!.

وصلنا إلى الشاطئ أخيرا .. فوضعت الطفل على الأرض سريعا ورحت أحاول عمل التنفس الصناعي وأضرب صدره بقوة .. هكذا رأيتهم يفعلون في الأفلام .. هذا المشهد يتكرر كثيرا حين يتم إنقاذ شخص من الغرق .. لكني لم أراه يحدث في عالم الواقع .. آمل أن يحدث .. أرجوك .. يا رب .. يا رب.. لا تجعلني أعيش المأساة مرتين .. أتوسل إليك .. لن أحتمل صدمة ثانية يا رب .. الناس حولي حتى حجبوا عني الشمس تماما لكن لم يتجرأ أحد منهم على الاقتراب من الطفل بما فيهم والدته نفسها!!! .. و .. سعل الطفل بقوة .. وبدأ يستعيد أنفاسه أخيرا .. فتعالت الأصوات من حولي وراح الجميع يطمئنون على سلامته في حين راحت والدته تضمه بقوة إلى صدرها وهي تجهش في البكاء.

أما أنا .. فكنت أنظر إليهم ببلاهة غير مصدقة ما حدث وما قمت بفعله للتو!!! .. أنظر إلى الأم وإلى طفلها الذي أنقذته.. إنه في عمر ولدي!!! .. في عمر ولدي تماما .. لحظات قليلة قبل أن تترك الأم ولدها وتأتي إلي لتحتضنني بقوة وتقبل رأسي ويدي وتشكرني بحرارة وتقسم أنها مدينة لي بحياتها .. وأنها لن تنسى أبدا هذا الجميل .. وراحت تخبرني باسمها ومكان سكنها وأنها ستعتبرني أغلى صديقاتها من الآن فصاعدا .. بل وأقسمت أنني سأتناول العشاء معهم الليلة .. يحدث كل هذا دون أن أبدي أي استجابة أو ردة فعل.. بل كنت أهز رأسي وأغمغم بكلمات لم أفهمها أنا نفسي.

و .. شيئا فشيئا .. ابتعد الناس عنا .. وتركتهم بدوري متجهة إلى الشاليه كي أستبدل ثيابي المبللة والتساؤلات تلتهم عقلي التهاما وأنستني كل شيء آخر!!! .. هل كان ولدي يريد تحذيري مما سيحدث؟؟! .. هل اتصل بي في أحلامي وفي وعيي أيضا أثناء وجودي في الشقة كي آتي إلى هنا وأنقذ ذلك الطفل؟؟!! .. أم أنني قد جننت فعليا وجنوني هو من قادني إلى هنا لأعثر على الطفل صدفة وأنقذه قبل غرقه؟؟!! .. لا أعلم.

المهم أنني أخذت حماما ساخنا .. وجلست في الشاليه مسترخية أمام شاشة التلفزيون شاعرة براحة نفسية غريبة لم أشعر بها منذ وفاة ولدي .. حتى مر الوقت سريعا .. لأنتبه فجأة أن الساعة تقترب من الثامنة مساء .. فارتديت بعدها ثياب الخروج .. وخرجت تلبية لدعوة والدة الطفل.. ليستقبلني الجميع بترحاب هائل وكأنني نجمة سينما يراها عشاقها على الطبيعة أول مرة .. الغريب أنني وجدت نفسي أبتسم لأول مرة أيضا منذ مدة طويلة للغاية وأندمج معهم في الحديث حول قضايا الساعة .. ومن ثم الحديث حول الأزياء والموضة .. وكل ما تتحدث بشأنه النساء عادة.

ولا أنسى بالطبع ذلك الطفل الصغير الذي أنقذته .. إذ جاء ليلقي علي التحية ويشكرني بنفسه بكلمات متلعثمة بريئة .. فاحتضنته بحرارة بالغة .. بل وبكيت بحرارة أيضا أمام أعين الجميع حتى سالت الدموع منهم دون أن يعرف أحد سبب بكائي الحقيقي.. إذ لم أخبرهم شيئا عن حياتي الخاصة وعن فقداني لولدي.

وهكذا مرت الساعات سريعا حتى شعرت أن موعد النوم قد حان أخيرا بعد أن بدأ النعاس يداعب عيني .. فشكرتهم

كثيرا على لطفهم وكرمهم ووعدتهم أن نكون على اتصال دائم .. لأخرج بعدها عائدة إلى الشاليه حيث شعرت أن جفوني قد ثقلت تماما .. لكن هذا لم يمنعني من التفكير دون توقف بما حدث لي .. هل كان هناك اتصال نفسي غامض تم مع ولدي حيث أرشدتني روحه لإنقاذ ذلك الطفل؟؟!! .. أم أن الأمر قد تم بالصدفة البحتة؟؟!! .. لم أجد الإجابة على هذا السؤال.

أبدلت ثيابي حال وصولي إلى الشاليه .. ودسست نفسي تحت اللحاف .. لأغرق بعدها سريعا في عالم الأحلام من شدة الإرهاق .. قبل أن يظهر ولدي مرة أخرى .. نعم .. لقد زارني هذه المرة أيضا في أحلامي .. لكن .. لكن .. هذه المرة تحديدا كان يبتسم!!! .. يا إلهي .. كان يبتسم بالفعل ولأول مرة منذ ظهوره في أحلامي!!! .. واحتضنني بحرارة في الحلم لأول مرة أيضا .. فاحتضنته بدوري شاعرة بارتياح نفسي لم أشعر به في حياتي.

لقد اتضحت الصورة كاملة الآن .. إذ كان ولدي الحبيب يحذرني طوال الأيام الماضية ويريدني أن أنقذ ذلك الطفل..

وكأنه يريد مساعدتي لأعيد اعتباري لنفسي .. وأعتقد أنه نجح في ذلك إلى حد كبير .. نجح حين أوصلني إلى منتزه (الخيران) وجعلني أنقذ حياة الطفل بنفسي!!!.

لقد استيقظت في اليوم التالي شاعرة أنني أفضل حالا بكثير .. ولأول مرة منذ بضعة شهور .. أجد نفسي أبتسم أمام المرآة في الحمام .. شاعرة أنني سأتجاوز تلك المحنة وسأعيش حياتي مرة أخرى .. فقد رضي عني ولدي الآن .. إنني واثقة من ذلك .. هذا ما رأيته بنفسي في الحلم.

وبالطبع .. لم تنتهِ القصة عند هذا الحد .. فقد تفاجأ جميع أفراد عائلتي بوجودي بينهم مرة أخرى بعد انقطاع تام عن العالم.. رآني الجميع وقد بدأت أعود لحالتي الطبيعية وأعانقهم واحدا تلو الآخر وأطلب منهم المغفرة على سوء معاملتي لهم جميعا .. بل إنني اتصلت بزوجي بعد ذلك .. ورجوته أن يسامحني بعد أن حاول كثيرا في السابق إنقاذي من محنتي والبقاء إلى جانبي.. لكني كنت أصده دائما وأبعده عني كما علمتم.

لقد توسلت إليه أن يتقدم للزواج مني مرة أخرى وأقسمت له أننا سنعيش في سعادة وسأكون له خير زوجة .. المسكين .. لقد

كان يحبني بحق .. فقد انفرجت أساريره .. ولم يفرط في فرصة إعادتي .. ليتم كل شيء بسرعة .. ونتزوج مرة أخرى.. لتبدأ عجلة حياتي بالدوران بعد أن توقف الزمن طويلا بالنسبة لي.

ماذا؟! .. تسألون إن كنت قد حلمت بولدي مرة أخرى؟؟!.. لا .. لم يحدث هذا .. لقد كانت لديه رسالة يريد إيصالها إلي فحسب .. وقد فعل .. فساعدني لأرد اعتباري لنفسي .. وأنقذ حياة ذلك الطفل كما رأيتم .. بل وحياتي نفسها .. ليرحل عني أخيرا .. لكنه رحل هذه المرة وأنا راضية تماما بقضاء الله وقدره .. شاعرة أنني لست مجرد امرأة سيئة فاشلة سمحت لولدها أن يموت أمامها بسبب إهمالها .. فقد أنقذت بالمقابل روحا أخرى حتى وإن لم تكن روح ولدي .. إن ما فعلته قد أرضى ولدي وهو ما يرضيني تماما.

المعذرة .. لقد نسيت أن أذكر نقطة هامة جدا لم تثر انتباهي في بداية القصة .. فنحن نحلم بالموتى كثيرا .. حتى وإن تكررت أحلامهم على نحو غريب كما حدث معي .. لكن ما أثار انتباهي سماعي لصوت ولدي أكثر من مرة أثناء

يقظتي كما ذكرت سابقا .. ولا ننسى صراخه الذي أيقظني من النوم في ذلك اليوم في الشاليه لإنقاذ ذلك الطفل.. فقد عرفت فيما بعد أن هناك ظاهرة غريبة من ظواهر ما وراء الطبيعة يطلق عليها اسم (ظاهرة سماع أصوات الموتى) أو (clairaudient).. وكما هو واضح من الاسم .. فإن هذه الظاهرة عبارة عن سماع الإنسان لأصوات مجهولة بوسيلة مجهولة أيضا .. وغالبا ما تكون تلك الأصوات للموتى وتكون متعلقة برؤية المستقبل .. تماما كما حدث معي في هذه القصة العجيبة*!! .. كيف يعرف الموتى بالمستقبل كما عرف ولدي ما كان سيحدث حين حذرني لإنقاذ ذلك الطفل؟؟!.. إنه سر لن أعرف إجابته على الأرجح .. إلا أنني أعرف الآن

---

* هذا ما يقوله الباحثون حول تلك الظاهرة والتي تسمى باللغة العربية (الجلاء السمعي) .. حيث تعتبر واحدة من أشهر ظواهر علم نفس الخوارق (الباراسيكولوجي) .. وكما هو موضح في سياق القصة .. فإن هذه الظاهرة تتمثل بالقدرة على الحصول على معلومات عن أحداث أو أشخاص من خلال حاسة سمعية داخلية ليس لها علاقة بحاسة السمع التقليدية .. وقد أجريت أبحاثا كثيرة حول تلك الظاهرة وتجارب لا تحصى .. ومن الممكن أن تجد العديد من تلك الأبحاث في الإنترنت .. لكن نتائجها ما زالت محل جدل حتى الآن .. وما زال هناك الكثير من المشككين الذي يربطونها بأوهام وتهيؤات مرتبطة بأمراض نفسية.

يقينا أن هذه الظاهرة حقيقية.. ربما لن يصدقني أحد .. لكن هذا لن يهمني كثيرا.. المهم ما حدث.. وما عشته بنفسي وكيف أثر كل هذا على حياتي وجعلني أحيا من جديد.

لقد عرفت أيضا أن هناك قصصا مذهلة عن الارتباط النفسي الرهيب بين الأم وأبنائها .. إن الأطفال هم قطعة من روح الأم انفصلت عنها .. لذا فالاتصالات النفسية بين الأم وأطفالها قابلة للحدوث .. فمن منا لم يمر بموقف كهذا؟؟!.. تتألم وتحزن ثم تعود لوالدتك .. فتصارحك أنها كانت تشعر بانقباض شديد في الوقت نفسه الذي مررت فيه أنت بتجربتك السيئة .. بل إن هناك حادثة شهيرة في (الولايات المتحدة الأمريكية) عن أم شعرت بآلام حادة في بطنها .. وفي المستشفى بحثوا عن التهاب في زائدتها الدودية لكنهم لم يعثروا عليه أبدا.. وبعد ساعات قليلة .. رن جرس الهاتف وكانت ابنتها تخبرها بأنها أجرت جراحة الزائدة الدودية منذ قليل وأنها الآن بخير*!!!.

---

* واقعة حقيقية

تمر تلك الأفكار في ذهني وأنا أشاهد صورة ولدي الحبيب مرة أخرى .. لكني كنت مبتسمة هذه المرة وأنا أقول لصورته:

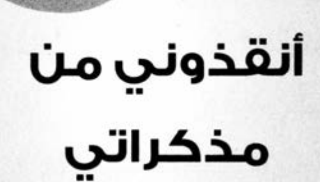
- إنك لم تنقذ حياة ذلك الطفل فقط يا عزيزي .. بل أنقذت حياتي أنا .. أنقذت عقلي من الجنون .. لقد عرفت أخيرا بفضلك وحدك .. أن الصراخ الذي كنت أسمعه حولي لم يكن من عقل مريض مكدود مضطرب .. بل هو صراخ حقيقي يأتي منك لينقذني وينقذ ذلك الطفل .. أشكرك يا ولدي الحبيب .. إنك جزء من روحي .. وستظل في قلبي وعقلي ما حييت!!.

أقول لنفسي هذا الكلام .. وزوجي يحيطني بذراعيه بعد أن عاد إلي .. مستغربا من عودتي إلى الحياة على حد قوله بعد أن يأس تماما من إخراجي من دوامة الحزن والاكتئاب التي سيطرت على حياتي .. لكني كنت أبتسم فحسب أمام نظراته المتسائلة دون أن أخبره بتفاصيل ما حدث خوفا ألا يصدقني.. لكن بعد تفكير .. وجدت أن لا ضرر هناك من كشف السر وكتابة قصتي حتى يقرأها الجميع - وإن لم يصدقها أحد بمن فيهم زوجي - ليعلموا كيف تسبب إهمالي بموت ولدي غرقا.. وكيف زارني في أحلامي وكأنه يريد منحي فرصة أخرى لأرد

اعتباري وأنقذ ذلك الطفل من الغرق .. وها قد فعلتها وأنقذته بالفعل .. والفضل كله يعود لولدي .. ولدي الحبيب.

((إنه لأمر جلل أن تقرر إنجاب طفل، فهذا يعني أنك تقرر السماح لقلبك بأن يحوم خارج جسدك إلى الأبد)).

إليزابيث ستون



أنقذوني من مذكراتي

تحكيها: آلاء

جرت أحداث هذه القصة في الأسبوع الأول من مباشرة عملي في مستشفى الطب النفسي .. وأعتذر منكم لعدم وضع القصص حسب تسلسلها الزمني .. ولكن هناك أسباب تحتم ذلك .. منها عدم تذكّري للتسلسل الزمني للقصص أصلا .. مع سبب آخر ربما سأذكره لاحقا.

المهم أن القصة بدأت عندما كنت جالسا في مكتبي في أول نوباتي المسائية منذ استلامي لوظيفتي .. حيث كان الهدوء يخيم تماما على المكان .. لا تنسوا أننا نتحدث هنا عن مستشفى الطب النفسي الذي يعتبر أقل المستشفيات استقبالا للحالات الطارئة بطبيعة الحال .. فلا نرى امرأة مضطربة لأن زوجها يعاني من نوبة قلبية مثلا .. ولا شابا متوترا لأن والده مصاب بجلطة دماغية مفاجئة .. لذا فالفترة المسائية من أقل الفترات عملا .. إلا أن هذا لم يكن ليرضيني في ذلك الوقت كطبيب شاب استلم عمله للتو ويشعر بحماس شديد لتقديم المساعدة وعلاج الناس.

كنت أقرأ إحدى المجلات العلمية وأستمع إلى موسيقى هادئة تنبعث من جهاز الكمبيوتر الخاص بي .. شاعرا أنني

أعيش لحظات استرخاء رائعة في كون آخر بعيد تماما عن زحمة الحياة.. قبل أن أعود إلى الواقع فجأة .. عندما سمعت من يطرق باب مكتبي بهدوء ولكن بإصرار شديد دون توقف.. حتى تصاعد الدم إلى رأسي من شدة الإزعاج .. فصرخت بغلظة:

- ادخل!!!!.

كنت على وشك توجيه اللوم إلى من سيدخل غرفتي بسبب الطريقة الوقحة في طرق الباب ظنا مني أنها إحدى الممرضات .. لكن بالمقابل .. انعقد لساني واحتبست أنفاسي تماما عندما رأيت فتاة رائعة الجمال لا يمكن أن يتجاوز عمرها 18 عاما في أفضل الأحوال .. كان جمالها من النوع الذي ينسيك وقارك كطبيب ويجعلك تتصرف أمامها وكأنك طفل تحاول إبهارها وكسب رضاها بأي صورة!!!.

رحت أحدق بها دون أن أشعر بنفسي .. أحدق بملامحها الملائكية وشعرها الأسود الذي ينسدل برقة ونعومة على كتفيها ليجعلها أكثر جمالا .. ولا ننسى جسدها الذي تنافس فيه عارضات الأزياء .. بل لو كانت لدينا عارضات أزياء لحسبتها

واحـدة منهن بالفعل!!! .. الغريب أنها كانت تضع بعض الماكياج الخفيف وترتدي ثيابا أنيقة للغاية في مثل هذا الوقت المتأخر .. مما قد يوحي للوهلة الأولى أنها من الطبقة الثرية.

ظلت متوقفة أمام عتبه الباب للحظات قليلة .. قبل أن تدخل ببطء شديد وتردد واضح وأنا ما زلت أحدق بها بانبهار .. لكني تمالكت نفسي أخيرا وتذكرت أين أنا ومن أنا!!! .. فتنحنحت ورحبت بها بطريقة رسمية تدربت عليها كثيرا أمام المرآة قبل أن أزاول عملي في المستشفى .. ثم طلبت منها الجلوس .. ولم تصدق الفتاة خبرا .. إذ جلست بسرعة.. قبل أن ألاحظ أنها مضطربة وقلقة للغاية لسبب أجهله .. لم أنتبه لهذا في البداية.. ربما بسبب جمالها الذي أنساني كل شيء آخر.

راحت تلتفت يمينا ويسارا .. ثم ألقت نظرة قلقة سريعة إلى ساعتها وكأنها تنتظر موعدا مصيريا .. فسألتها مبتسما:

- كيف أستطيع مساعدتك؟!.

ردت بقلق واضح وعينان تدمعان تأثرا:

- هذه الموسيقى التي تستمع إليها .. إنها رائعة يا دكتور

وتنسيني كل الأهوال التي أعيشها!!! .. يا إلهي .. أشعر أن الموسيقى هي الشيء الوحيد الصادق في هذا الكون.. إنها تبعد عنا كل شياطين الإنس .. المعذرة .. إحم إحم .. أشعر بتوتر شديد .. ولا أعرف كيف أبدأ.. إن ما أفعله لهو أمر عسير .. فالمرء لا يمكنه الوثوق تماما بالأطباء النفسيين ومع ذلك تجده يلجأ إليهم في النهاية!!!.

ابتسمت مجبرا لهذه البداية الغريبة المضطربة .. لكني لم أقل شيئا .. بل أوقفت الموسيقى بالمقابل لأعطي الفتاة كل اهتمامي .. فأردفت بجدية وهي تشير بإصبعها محذرة:

- دكتور .. فلتعلم أولا أنني جئت إلى هنا بمحض إرادتي .. لذا أرجوك أن تعاملني كإنسانة عاقلة متزنة وليس مجرد فتاة مراهقة تعيش أوهاما أو وساوس لا معنى لها كما تقولون دائما!!!.

أومأت برأسي موافقا .. فأردفت وهي تقول بصوت مرتجف:

- أرجوك أن تسمعني جيدا .. لن أعيد كلامي .. لأن الوقت

لا يسمح بذلك!! .. المضحك المبكي في قصتي أننا في شهر (فبراير) .. وهو الشهر الذي توفي فيه أبي عام 2002 وتوفيت فيه أمي أيضا بعده بحوالي 4 سنوات .. ويبدو أنني أنوي الموت فيه كذلك!!! .. إن أمامي ساعة واحدة قبل أن أموت .. فبعد حوالي ساعة من الآن سيحل منتصف الليل وينتهي شهر (فبراير) اللعين لندخل في أول أيام شهر (مارس) .. ويبدو أنني لن أشهد الشهر الجديد .. سأموت قبل أن يبدأ!!!!.

نظرت إليها باستغراب .. ثم قلت:

- ما الذي يجعلك تظنين أنك ستموتين خلال ساعة من الآن؟! .. إن كانت صحتك ليست على ما يرام فمكانك ليس في مستشفى الطب النفسي .. ثم لا أحد يعرف إن كان سيموت بعد ساعة أو بعد يوم .. فهذه الأمور .....

قاطعتني وهي تضرب الطاولة بعنف وكأن لا وقت لديها لهذا الهراء!!! .. لتقول برجاء:

- أرجوك أعفني من هذه المحاضرات .. استمع إلي جيدا وستفهم كل شيء .. لكن يجب أن تستمع إلي وتصدقني..

الأهم هو أن تصدقني!!! .. وأنا لا أعرف في واقع الأمر كيف ستساعدني حتى وإن صدقتني .. لكن يجب أن أحاول .. أنت أملي الأخير يا دكتور .. يا إلهي .. إنني ابنة عائلة مرموقة لها مركزها الاجتماعي .. ولم يكن من اليسير أن أزور هذا المكان .. بل ولم يكن من اليسير أصلا أن أخرج من البيت في مثل هذه الساعة دون علم أشقائي لأزور مستشفى الطب النفسي!!!.

قلت مدافعا عن نفسي وعن وظيفتي:

- سيدتي .. مستشفى الطب النفسي ليس مكانا يخجل منه الناس .. هذا التفكير موجود في مجتمعاتنا الشرقية فقط للأسف!!! .. أما في الدول المتقدمة فلا يوجد أي حرج من زيارة العيادات النفسية .. بل إن الكثير من العظماء والمشاهير يتباهون بزياراتهم للأطباء النفسيين .. لأنهم يدركون جيدا أن .....

ردت بسرعة وعصبية بالغة وكأن لا وقت لديها لهذا الهراء:

- أعرف .. أعرف .. اسمعني أرجوك .. واعذرني لتوتري الشديد .. فأنا على يقين أنني سأموت قبل حلول منتصف الليل .. الوقت يمضي ولا يرحم .. كما أن توتري ينبع أيضا من أمور أخرى .. من زحمة الحياة نفسها!!! .. إننا نعيش في بلد صاخب يمتلئ بالحركة والتلوث الضوضائي حيث تختلط أصوات الناس وصراخها وأبواق السيارات وأصوات الشاحنات لتصنع مزيجا يجعل الحياة مستحيلة لفتاة مثلي تحب الجمال والهدوء .. فلا تلمني على توتري بعد كل هذا.

هزت رأسي موافقا وأمسكت بالقلم كي أكتب أي ملاحظات أثناء كلامها .. فتنهدت وكأنها ستحكي لي قصة طويلة .. لتبدأ بالحديث أخيرا:

- لقد بدأت قصتي منذ حوالي عام أو ربما أكثر قليلا!!! .. عندما سافرت مع أشقائي إلى إحدى دول أوروبا .. وأثناء وجودنا في أحد الشوارع التي تمتلئ بالسياح .. شاءت الظروف أن تلتقي عيناي بامرأة عجوز مشردة غريبة الأطوار كما بدا شكلها للوهلة الأولى .. كانت تجلس

وحيدة على ناصية الطريق .. لكن .. شيء ما أثار انتباهي بخصوصها .. لا أعرف ما هو .. إذ شعرت أنها تمتلك (كاريزما) غريبة .. وعينين فاحصتين تشعرانك بتناقض صارخ ما بين الرهبة الشديدة والرغبة في الاقتراب منها والتحدث معها بنفس الوقت!!!.

سألتها بهدوء:

- كيف كانت تبدو؟!.

قالت بغموض:

- لقد بدت لي وكأنها من الغجر* الذين نراهم في السينما بفستانها الطويل المتهالك وغطاء رأسها الأحمر المزركش..

---

* الغجر هم عرق ينتشر في أوروبا بكثافة منذ القرن الخامس عشر.. وتوجد في الواقع آراء مختلفة بشأن تاريخهم وأصولهم .. إلا أن الأرجح هو أن هؤلاء القوم من شعوب (الهند) و(إيران) ومناطق وسط وجنوب آسيا حيث هاجروا من أراضيهم إلى أوروبا في القرن الرابع الميلادي ووصلوا إلى مناطق (المجر) و(صربيا) .. ثم انتشروا في (بولندا) و(روسيا) .. واستمر انتشارهم إلى أن بلغوا (السويد) و(إنجلترا) في القرن السادس عشر الميلادي .. وجدير بالذكر أن الغجر من بين مقدمة الشعوب التي تعرضت لاضطهاد الحكم النازي.

المهم أنني ورغم شعوري بالرهبة الشديدة ناحيتها .. إلا أن هذا لم يمنعني من التوجه إليها لأضع بعض المال في يدها بعد أن رأيت حالة ثيابها المزرية .. الغريب أنها استنكرت تصرفي هذا .. وقالت بصرامة - وبإنجليزية جيدة - أنها لن تقبل مني أي أموال دون مقابل .. فهي لا تتسول .. بل تأخذ المال مقابل خدماتها فحسب!!! .. سألتها باستغراب عما يمكن أن تقدمه لي امرأة في مثل سنها .. فردت بثقة واضحة أنها قادرة على تغيير حياتي بأكملها!!! .. كل ما علي فعله هو شراء دفتر مذكرات من أحد أكشاك الصحف والمجلات التي يمتلئ بها الشارع .. وسأرى بنفسي - على حد قولها - ما سيحدث!!.

سكتت للحظة وهي تنظر إلي .. ثم راحت تنظر مرة أخرى إلى ساعتها وكأن أجلها سيحين بالفعل بعد وقت قصير كما ادّعت .. فقالت وهي تعض شفتيها أسفا:

- كان من الممكن أن أتجاهل كل هذا وأمضي في حال سبيلي.. لكني شعرت بفضول لم أشعر به في حياتي!!! .. شيء ما جعلني أرغب بالاستمرار وتنفيذ ما طلبته هذه العجوز..

فاستسلمت تماما لمشاعري تلك .. وتوجهت بالفعل إلى أقرب أكشاك الصحف حيث وجدت بعض دفاتر المذكرات المعروضة للبيع .. فاشتريت واحدا .. وعدت مرة أخرى إليها شاعرة بفضول رهيب للاستمرار في تلك اللعبة .. كيف ستغير هذه المرأة حياتي كما تدعي؟؟! .. إذ لم أشعر أبدا أن كلامها تخاريف عجائز .. بل شيء ما في عينيها جعلني واثقة تماما أنها امرأة غير عادية وقد تكون صادقة تماما في كلامها .. ولو كنت أعرف ما سيحدث بعدها لسيطرت على نفسي ولما أكملت حماقتي!!!.

قلت باستغراب واضح:

- هل كانت تلك العجوز ساحرة مثلا؟! .. وعلى كل حال.. أنا لا أجد في القصة أي شيء مريب حتى الآن .. فحتى السحر .. هناك عشرات الوسائل لتجنبه كما تعلمين ولا يمكن أن يتسبب بقتلك في زمن محدد!!!.

ردت بصوت منخفض وهي تعض على أسنانها من شدة الغيظ:

- أرجوك اخرس قليلا ودعني أكمل!!!.

شعرت بإهانة بالغة أمام وقاحتها!!! .. لكني ابتلعت إهانتها .. وأشرت لها أن تكمل .. لتردف بعصبية:

- عندما عدت إليها .. أعطيتها دفتر المذكرات .. فأمسكت به بكلتا يديها وبكل قوتها كما بدا لي .. ثم أغمضت عينيها.. وراحت تتحدث بلغة غريبة لا يمكن أن أصفها لك .. بل وأكاد أقسم أنها لا تشبه أي لغة بشرية .. وكأنها.. وكأنها كانت تتحدث إلى الجن!!! .. خاصة أنها لم تغلق عينيها جيدا .. فلم أعد أرى فيهما سوى البياض وقد اختفى البؤبؤ تماما!!! .. لقد بدت لي حينها مخيفة إلى درجة لا تصدق رغم أنني كنت في شارع عام مليء بالمارة .. إلا أنني شعرت - رغم ذلك - أنني في خطر داهم وأنني وحيدة تماما .. و.. كدت أن أتركها وأطلق ساقي للريح .. إلا أنها استكانت فجأة وعادت إلى طبيعتها .. ثم ابتسمت وأعطتني الدفتر.. وقالت بعدها أن حياتي ستتغير منذ هذه اللحظة.. وأنني سأكون قادرة على التنبؤ بالمستقبل!!!!.. شعرت عندها أنني أتعامل مع امرأة مخبولة وأنني قد أضعت وقتي بالفعل .. فألقيت بيدها عملة نقدية باحتقار

شديد وتركتها وأنا أكاد أن أبصق بوجهها .. لكنها أصرت أن آخذ معي دفتر المذكرات لأنه سيكون كلمة السر على حد قولها!!!.. كلمة السر في ماذا؟؟!! .. لم أكن أعلم.. لكني أخذت الدفتر على كل حال ودسسته في أحد الأكياس التي كنت أحملها .. ونسيت بعدها الأمر برمته.

سكتت وهي تتنهد بأسى .. قبل أن تقول:

- كان هذا النصف الأول من القصة .. أما النصف الثاني والأهم .. فلم يبدأ إلا عندما عدت إلى (الكويت) بعد تلك الحادثة بحوالي أسبوع أو أكثر قليلا .. عندما توفيت عمتي رحمها الله .. لقد كانت وفاتها متوقعة بأي لحظة.. فهي امرأة كبيرة في السن تعاني أمراضا عديدة .. وبالطبع كنت موجودة في منزل العائلة لتلقي العزاء منذ اليوم الأول الذي انتهى ببطء شديد كحال أيام العزاء .. لأعود مع أشقائي إلى البيت وآخذ حماما ساخنا أزال عني كل الإرهاق الذي كنت أشعر به .. ثم رحت بعدها أبحث بين الكتب العديدة التي تملأ مكتبتي لأقرأ قليلا قبل النوم كما هي عادتي.. فوقعت يدي بالمصادفة على دفتر المذكرات

ذاته .. دفتر المذكرات الذي اشتريته بناء على طلب تلك الغجرية العجوز .. أمسكت به مبتسمة أتصفحه بشرود وأنا أتذكر ما حدث في ذلك اليوم وكيف شعرت بالخوف من تلك المرأة المخبولة .. وأفكر بوفاة عمتي.. قبل أن .. قبل أن تقع يدي على إحدى صفحاته!!!.. صفحة مليئة بالكلام الذي كتبته بخط يدي وتحمل تاريخ الأمس!!!.. هذا غريب .. من المفترض أن تكون صفحات الدفتر كلها خالية .. فأنا لم أستخدمه أصلا .. بل وضعته بإهمال في مكتبتي عندما عدت إلى (الكويت) كما أخبرتك!!!.. متى كتبت كل هذا الكلام؟!! .. كنت أقرأ ما هو موجود باستغراب دون فهم .. ليتحول الاستغراب إلى رعب حقيقي .. بل صدمة هائلة لا تصدق!!!!.

سألتها بلهفة وقد شدتني قصتها كثيرا:

- ماذا حدث؟!.

ردت بذعر:

- لقد كتبت أمورا كثيرة على إحدى صفحات دفتر المذكرات في اليوم الذي سبق وفاة عمتي دون أن أشعر بنفسي..

وكل ما كتبته قد تحقق في اليوم التالي!!! .. نعم يا دكتور.. لقد تنبأت بكل ما سيحدث في اليوم التالي.. تنبأت بوفاة عمتي .. وبتناول وجبة معينة على الغداء مع أفراد العائلة وقت العزاء .. مع أمور كثيرة أخرى حدثت جميعها دون استثناء .. لقد تنبأت بالمستقبل بكل دقة .. ولكن ليس بالمستقبل البعيد .. بل باليوم التالي فحسب!!!.. لا تسألني كيف .. أنا نفسي لم أعرف متى كتبت كل هذا أصلا!!!!.

لا أنكر أن كلامها قد هزني تماما .. حتى شعرت بعجز ورعب بالغين أمام ما أسمعه منها .. هذه الفتاة تتحدث عن شيء يفوق قدرات البشر .. هذا مستحيل .. لا يمكن أن تكون محقه .. هناك خطأ ما!!!.

لكنها لم تلتفت إلى ذهولي .. بل أردفت بانفعال شديد وهي تكاد تبكي:

- لم تكن هذه سوى البداية يا دكتور .. إذ رحت أفتح دفتر المذكرات صباح كل يوم لأجد أنني قد دونت فيه أشياء لا أذكر أنني قد دونتها أصلا!!! .. وأفاجأ بعدها أن كل ما دونته يحدث بأدق التفاصيل!!! .. المهم أن ذلك الدفتر اللعين

قد تحول إلى دفتر نبوءات!!! .. أذكر أنني استيقظت ذات يوم وأمسكت بالدفتر لأعرف ما دونته .. لأفاجأ بأنني قد تنبأت بموت فنان معروف .. وقد حدث هذا فعليا بنفس اليوم عندما راحت وسائل الأعلام تتناقل خبر موته .. حتى بت واثقة ومتأكدة تماما أنني أستيقظ في الليل أثناء نومي دون أن أشعر بنفسي .. وأدون في ذلك الدفتر كل ما يتنبأ به عقلي الباطن.. لا يوجد أي تفسير آخر كما ترى!!! .. ثم أعود بعدها إلى النوم دون أن أشعر أيضا .. ليحدث ما كتبته وتنبأت به في اليوم التالي فحسب!!!.

سألتها وأنا أزدرد لعابي بتوتر شديد محاولا البحث عن مخرج عقلاني لما أسمعه:

- ولكن .. كيف تعلمين أنك أنت من يكتب في ذلك الدفتر؟؟!!.. ثم هناك نقطة أخرى .. فربما أنت تكتبين ما (حدث) وليس ما (سيحدث) .. أي أنك تكتبين في المساء الأحداث التي مررت بها اليوم .. لكنك وبسبب خلل في الدماغ مثلا.. يختلط عليك الزمن دون أن تدركي ذلك .. فهناك أمراض نفسية كثيرة - أو حتى عضوية - قد تصيب الإنسان وتسبب عدم إدراكه للزمن.

ردت بغيظ ووقاحة وكأنها سئمت هذا الكلام:

- أولا .. أنا أعلم أنني من يكتب في ذلك الدفتر لأن الكلام مكتوب بخطي .. ظننت هذا واضحا يا دكتور .. لا يطرح هذا السؤال إنسان عاقل!!! .. ثانيا .. دماغي لا يعاني من أي أمراض وأنا لا أفقد إحساسي بالزمن كما تقول .. بل أنا أنهض أثناء نومي دون أن أشعر .. وأبدأ بالكتابة في ذلك الدفتر دون أن أشعر أيضا .. إنني أتنبأ بالمستقبل كما أخبرتك .. لقد بت أستيقظ صباح كل يوم لأجد في مذكراتي ما سيحدث لي في نفس اليوم!!! .. تنبأت بصفقة مربحة كان شقيقي سيفوز بها .. تنبأت بمرض شقيقتي المفاجئ .. تنبأت بنجاحي بنسبة محددة في الثانوية العامة.. هل كل هذه صدف؟؟!! .. إنه جنون .. جنون حقيقي .. لكنه يحدث .. ولا أعرف كيف!!!.

قلت بصوت متخاذل وكمحاولة أخيرة للتحدث كرجل علم:

- لا يوجد شيء في الطب النفسي عن أمر كهذا .. أنت تتحدثين عن أمر خارق للطبيعة .. هناك مليون سبب يجعلني غير مصدق لما تقولينه!!.

نظرت إلي باستنكار وهي تقول:

- لا تصدق؟؟! .. هل تمزح؟!! .. هل تريد أن تحبسني في المستشفى مع دفتر المذكرات لتتأكد من كلامي؟! .. ستجد أنني أستيقظ في وقت متأخر من الليل دون أن أشعر بنفسي وأمسك ذلك الدفتر لأكتب نبوءاتي للغد والتي ستتحقق بكل دقة رغما عن أنف الجميع؟؟!.

شعرت أنها أصابتني بالصميم .. فقلت بذعر:

- هل هـذا يعقل؟! .. هـذا مستحيل .. هل .. هل فعلت تلك الغجرية شيئا بدفتر المذكرات؟!! .. هل مارست السحر مثلا؟! .. ولكن .. ولكن .. شخصا يمارس السحر بهذه الدقة المخيفة لا يمكن أن يكون مجرد امرأة غجرية فقيرة!!!.. شخص يمتلك هذه المقدرة العجيبة سيكون من أغنى الناس .. هذه المرأة تستطيع أن تتنبأ بأرقام اليانصيب.. تتنبأ بنتائج المباريات وتكسب كل الرهانات.. لن تكون مجرد مشردة تجلس في الشارع وتحاول إبهارك!!!.. هناك أمر غير مفهوم!!.

قالت الفتاة بعصبية:

- إنني فتاة مثقفة يا دكتور رغم صغر سني .. فلا تظن أنني لم أفكر بكل ما تقوله .. بخصوص كلامك السخيف عن الثراء وأوراق اليانصيب .. فيجب أن تعلم أننا نجهل كيف يفكر السحرة والمشعوذون .. ربما هؤلاء لا يريدون الحياة في نعيم كما تقول .. بل يريدون بالمقابل أن يبهروا العالم وأن يروا أفكارهم تتحقق .. التاريخ مليء بشخصيات كهذه!!! .. كما أنني بحثت عن حالات شبيهة بحالتي في عشرات الكتب ومواقع الإنترنت .. وعرفت أن ما يحدث لي هو في الواقع ظاهرة شهيرة لا تخفى على الباحثين في علم ما وراء الطبيعة!!! .. إنها ظاهرة يطلق عليها اسم (سايكوغرافيا) (psychograph) .. إذ يشعر الإنسان فجأة أن وعيه ينفصل عن العالم وأنه يكون في حالة شبيهة بالغيبوبة .. إلا أن أنامل يده تمسك بالقلم وتبدأ بالكتابة فجأة وبتلقائية على أي شيء قابل للكتابة عليه .. ماذا يكتب تحديدا؟! .. لا يوجد شيء محدد .. أحيانا خطوط قد لا يكون لها أي معنى سوى في العقل الباطن .. وأحيانا أخرى تنبؤات مستقبلية كما يحدث معي.

خرست تماما بعد كلامها هذا مستغربا لسماع تلك المعلومات التي لم أسمع بها من قبل .. لتردف الفتاة بتوتر:

- يقولون إن ما يكتبه الإنسان في تلك الحالة هو ما تمليه عليه الأرواح أو ربما كيانات غير مادية تعيش بيننا .. ويقال أيضا إن كثيرا من الإبداعات الفنية قد خرجت من مبتكريها بواسطة الكتابة التلقائية هذه .. المشكلة أننا لا يمكننا أن نختار ما نتنبأ به .. بل نتنبأ فحسب .. قد تكون تلك الغجرية على دراية بأسرار الـ(سايكوغرافيا) هذه وقد نقلتها إليّ* !!! .. بل هذا هو الاحتمال الوحيد كما ترى.

* هذا ما يقوله الباحثون في علوم ما وراء الطبيعة بالفعل .. ويُعتقد أن الإغريق والرومان هم أول من تطرقوا لـ(السيكوغرافيا) .. حيث اعتقدوا بأن إلهامهم الفني أو الشعري هدية تأتيهم من الآلهة في أوقات محددة.. بل وهذا ما صرح به الفيلسوف العظيم (فولتير) بالفعل بمناسبة كتابته المسرحية الدرامية (Catiline) .. إذ قال إن التدفق الفكري الذي شعر به مدة أسبوع وهو يكتب تلك المسرحية .. يضاهي مدة تفكير 5 سنوات في الحقيقة.. وإنه متيقن أن ما حدث له كان بواسطة قوة غريبة!!! .. كما كتب المفكر العالمي (غوته) قسما من مؤلفاته وهو في حالة (سيكوغرافيا) كما كان يقول الجميع.. حيث أعلن أنه لم يكن يدري بمضمون أبيات قصائده التي كان يكتبها بشكل غريزي دون أن يشعر بنفسه .. علما بأن هذه الظاهرة مرتبطة أيضا بالتراث العربي .. إذ كان العرب يعتقدون أن الشعراء المبدعين مصابون بحالات (سيكوغرافيا) تأتيهم أثناء كتابتهم=

تجاهلت إهاناتها المستمرة ووصفها لكلامي بالسخف .. ورحت أفكر بما تقوله .. هناك شيء مفقود .. توجد نقطة لا أفهمها هنا!!! .. سألتها مرة أخرى:

- هناك أمور كثيرة يمكنك فعلها .. ألم تحاولي أن تنامي بعيدا عن دفتر مذكراتك لتري ما سيحدث مثلا؟!! .. ألم تحاولي التخلص منه؟! .. ألم تحاولي على الأقل منع ما تنبأت به من الحدوث؟!! .. ثم .. لماذا جئت إلي اليوم تحديدا؟! .. لماذا انتظرت كل هذا الوقت قبل أن تطلبي المساعدة؟!!.

انهمرت دموعها فجأة!!! .. بتلك الطريقة المفاجأة التي تبكي بها الفتاة الجميلة وتصيب الرجل في مقتل .. وراحت تقول بصوت باك:

- لقد فعلت .. وضعت دفتر المذكرات في السيارة على سبيل التجربة .. وذهبت بعدها إلى الفراش .. لكني لم أتمكن من

=إلا أنهم لم يستخدموا هذا المصطلح بالطبع .. فكانوا يعزون الأمر إلى وجود شيطان خاص بالشاعر يلهمه بالشعر!!! .. وقد امتد هذا الاعتقاد حتى العصر الأموي .. ويقال إن الشاعر العربي (الفرزدق) أكثر الناس ترديدا لوجود شيطان خاص به يلهمه بكتابة أروع القصائد .. في النهاية.. يجب أن نشير أنه لا يوجد ما يثبت تلك الظاهرة بشكل قاطع رغم أنها خضعت لدراسات عديدة وبعضها جاء بنتائج مبهرة بالفعل.

النوم .. ثلاث أيام متواصلة عجزت فيها تماما عن النوم!!!.. وما أن أعدت الدفتر إلى غرفتي حتى غرقت في نوم عميق .. هذا ما جعلني أخشى التخلص منه كي لا تحدث كارثة .. فربما لن أنام بعدها طوال العمر.. من يدري ما سيحدث؟؟!.. وقد حاولت أيضا منع بعض نبوءاتي من التحقق .. لكنها كانت تتحقق بإصرار غريب.. وفي أبسط الأمور!!! .. أتنبأ بأنني سأذهب إلى مجمع (المارينا) التجاري مثلا .. وعندما أقرر عدم تنفيذ النبوءة .. أجد نفسي مسلوبة الإرادة ومدفوعة بقوة غريبة لا أستطيع أن أصفها لك لتنفيذ نبوءتي .. فأقوم بتنفيذها بكل دقة رغما عن أنفي!!! .. صدقني .. لقد انهارت أعصابي تماما .. خاصة أن هذا السر يثقل كاهلي كثيرا بعد أن بذلت جهدا خارقا لكتمان الأمر عن جميع أفراد الأسرة.. وحتى عن أقرب صديقاتي .. لكن.. ما حدث صباح اليوم يفوق كل احتمال .. فقد تصفحت الدفتر حال استيقاظي كما هي العادة مؤخرا .. ووجدت أنني تنبأت بما أثار رعبي وأذاب كل ذرة تعقل لدي .. وهو ما يجيب على سؤالك الأخير المتعلق بسكوتي عن الأمر طوال السنة الماضية وزيارتي لك في هذه الساعة المتأخرة لطلب المساعدة!!!.

سألتها بذعر:

- وماذا سيحدث اليوم؟!.

راحت تقول وقد ازدادت دموعها انهمارا لتتلف ماكياجها تماما:

- لقد دونت في دفتر المذكرات أنني سأموت اليوم .. قبل منتصف الليل بلحظات قليلة .. أي أن أمامي أقل من ربع ساعة من الآن قبل أن ألقى حتفي!!! .. لا أعرف كيف سأموت .. لكن .. هذا ما تنبأت به .. لم أعرف إلى أين يجب أن ألجأ .. ففكرة الذهاب إلى الشرطة ستكون سخيفة لأنهم سيظنون أنني مجنونة دون شك .. ثم .. تذكرت الطب النفسي في غمرة يأسي .. قد تكون للطب النفسي كلمة في موقف كهذا .. ربما هو الأمل الأخير بالنسبة لي.. أرجوك ساعدني يا دكتور!!!.

نهضت من مكاني بتوتر شديد من هول الموقف .. وقلت بانهيار وهلع واضحين:

- يا للهول .. تقولين إنك ستموتين بعد دقائق؟!! .. ماذا عساي أن أفعل؟!! .. إنك تتحدثين عن السحر والشعوذة .. هذه

أمور خارج نطاق سيطرتي وإدراكي يا فتاة .. إنني رجل علم لا أفهم في تلك الأمور .. لا أعرف كيف أساعدك.

ساد المكان صمت مخيف بعد ذلك سوى من صوت بكائها الذي مزق قلبي .. أفكر .. وأفكر .. هل أتصل بالشرطة؟؟! .. هل سيصدقون قصة كهذه أصلا؟! .. ثم.. واتتني فكرة غريبة .. لكني قررت وضعها قيد التنفيذ .. فتبدلت ملامحي القلقة المذعورة إلى أخرى أشد حزما .. وقلت بإصرار شديد أثار استغرابها:

- سأمنع موتك!!! .. نعم .. إن موتك لم يأتِ بعد ومن حقنا أن نحاول منعه يا عزيزتي .. سأعلن حالة الطوارئ في المستشفى .. سأتصل بالشرطة حتى وإن لم يصدقوا قصتك .. سأحميك تماما .. لا تخشي شيئا.

راحت تنظر إلي وقد شعرت أنني بطلها الأوحد .. ويبدو أنها شعرت أيضا أن الأمل قد عاد بقوة .. إذ قالت بحماس وهي تمسح دموعها:

- ربما ينفع ما ستفعله .. ربما نستطيع أن نكسر نبوءاتي ولو مرة واحدة .. ولكن .. أسرع أرجوووووك .. أسرع .. الوقت يمر .. لم يتبقَ الكثير!!!.

قالت هذا وهي تخرج من حقيبتها دفتر مذكرات صغير الحجم نسبيا .. شعرت برهبة حقيقية وأنا أنظر إليه رغم مظهره الذي لا يختلف عن أي دفتر مذكرات آخر .. إنه هو دون شك.

نهضت من مكانها ووضعت الدفتر في يدي وهي تطلب مني أن أحتفظ به بعيدا عنها .. ربما سيغير هذا شيئا .. فأخذته منها بالفعل .. ووضعته بدوري في أحد الأدراج بيد مرتجفة .. ثم أمسكت بسماعة الهاتف لأتصل بالممرضات في الاستقبال كي تأتي إحداهن وتكون إلى جانب الفتاة .. على أن أذهب بعدها لأعلن حالة الطوارئ في المستشفى وآتي بحراس الأمن لحماية الفتاة مع جلب طبيب باطني إلى هنا كي يتأكد من حالتها الصحية حتى لا تكون على أعتاب الإصابة بسكتة قلبية مفاجئة قد تنهي حياتها مثلا .. و .. اللعنة .. لا أحد يرد على الهاتف .. أين الممرضات؟!! .. توجهت كالمجنون إلى خارج الغرفة .. فوجدت قاعة الاستقبال خالية تماما .. قبل أن أسمع صوت ضحكات الممرضات اللاتي تركن القاعة وجلسن في الاستراحة.

ركضت بكل قوتي متجها إليهن .. فصرخت بهن برعب حقيقي كي تقوم إحداهن بإبلاغ الأمن فورا عن وجود حالة طوارئ في المستشفى وأن تطلب الأخرى طبيبا باطنيا في الحال.. فرحن ينظرن إلي بقلق بالغ وقد شق توتري وصراخي حالة السكون التي تعم في المستشفى .. قبل أن .. قبل أن تنفجر إحدى الممرضات ضاحكة وهي تقول:

- يا إلهي .. إنها تلك الفتاة .. أليس كذلك؟؟!! .. آآآه .. أنت طبيب جديد ولم تلتقِ بـ (آلاء) .. تلك المسكينة .. إنها مختلة عقليا ومقيمة هنا منذ 3 سنوات!!!! .. وفي وقت متأخر من كل ليلة تزور الطبيب النفسي المناوب وتخبره بنفس القصة عن دفتر مذكراتها وعن نبوءاتها وأنها ستموت بعد دقائق .. إلخ .. أليس هذا ما قالته لك؟؟!!!.. هاهاهاهاها!!!!!.

نظرت إليها في غباء واضح وقد شعرت أنني أحمق مخلوقات الأرض!!!! لتتعالى أيضا ضحكات باقي الممرضات بلا انقطاع لوقوعي كما يبدو في ذلك المقلب السخيف .. حتى إنني خرست تماما!!!! .. ورحت أستمع

إليهن وهن يتحدثن بلغتهن الآسيوية دون أن أفهم منها شيئا.. لكن .. كان واضحا أن محور الحديث هو أنا .. وحماقتي!! .. وكيف أن هذه النزيلة المختلة عقليا جعلتني أصدق قصتها.

حدث كل هذا في لحظات قليلة أمام نظراتي التي تصلبت خجلا وذهولا .. قبل أن تخرج ممرضتان من غرفة الاستراحة وتتجهان إلى غرفتي حيث تلك الفتاة التي عرفنا أن اسمها (آلاء) .. لتقوم إحداهما بحقنها بإبرة مهدئة وهي تقاوم بوهن وتصرخ بأن نبوءتها ستتحقق وأنها ستموت لا محالة إذا أخذت الحقنة .. لكن .. يبدو أن الممرضتين قد اعتادتا التعامل معها .. إذ تمت السيطرة عليها لتنام أخيرا ويعم الهدوء المستشفى!!!!.

مرت دقائق طويلة ومشاعر الخجل والقلق والإهانة والغباء ما زالت تسيطر علي تماما!!! .. قبل أن أتنحنح وأسأل الممرضات بصوت متحشرج:

- لماذا لم تخبروني عن حالة تلك الفتاة؟! .. لم أكن أعلم أنها نزيلة في المستشفى أصلا!!!! .. إنها نوبتي المسائية

الأولى كما تعلمون جميعا .. ثم كيف تدخل المريضة غرفتي بهذه الصورة دون رقابة؟؟! .. ومن زودها بتلك الثياب الأنيقة؟؟!!.

ردت إحدى الممرضات بابتسامة عريضة:

- كنت أظن أنك قد درست حالات جميع المرضى المقيمين هنا منذ فترة طويلة .. لذا لم نخبرك بشيء عن (آلاء) .. ثم إنها فتاة مسالمة جدا .. لكنها تعاني من أمراض نفسية شائكة ومتعددة .. منها فوبيا الأماكن المغلقة* .. لذا نترك غرفتها مفتوحة كي تخرج منها وتعود إليها متى ما أرادت.. ستعرف كل شيء عنها لو فتحت ملفها وقرأته .. كما أن طبيبها المشرف على حالتها يسمح لها بارتداء ما تريده من ثياب وزينة ظنا منه أن هذا قد يكون جزءا من العلاج .. يريدها أن تشعر أنها حرة وليست سجينة المكان.

نظرت إليها ببلاهة واضحة .. قبل أن أقول بذهول:

* فوبيا الأماكن المغلقة (Claustrophobia) هي أحد أنواع الفوبيا التي تتولد عند الإنسان .. وتجعله يخشى الأماكن المغلقة والضيقة كثيرا .. مهما كان حجم الرفاهية المتوفرة فيها.

- لقد خدعني مظهرها الخارجي .. خدعني .. خدعني جمالها والحق يقال .. لم أظن للحظة أنها نزيلة هنا .. لقد صدقت تماما كل ما قالته لي!!!!.

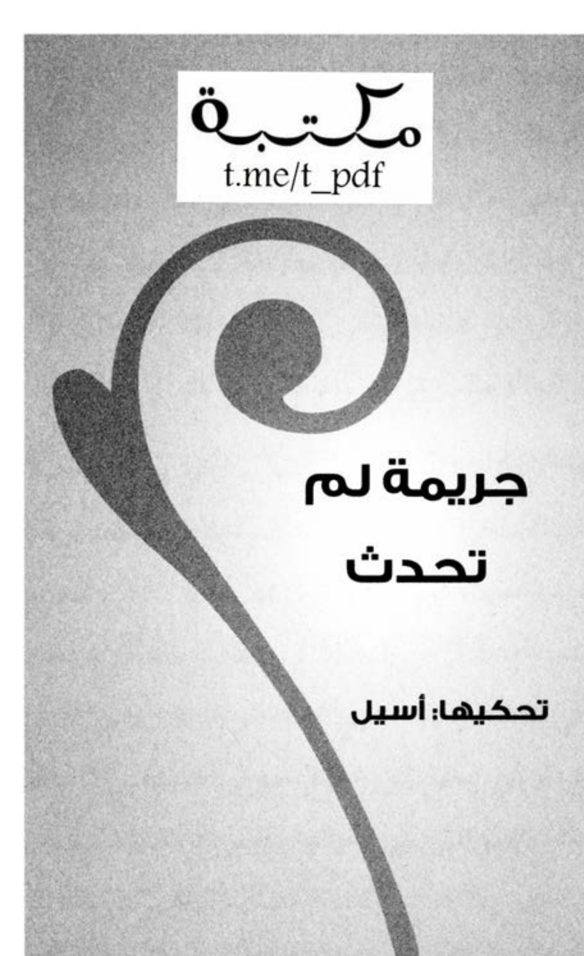
نظرت إلي معاتبة .. ثم ابتسمت وراحت تتحدث مع زميلاتها وكأن شيئا لم يكن .. فابتعدت عنهن بهدوء واستدرت عائدا إلى غرفتي شاعرا بحرج بالغ وقد تعلمت أول دروسي في حياتي العملية كطبيب نفسي .. أن أتأكد أولا إن كان من يدخل غرفتي نزيلا في المستشفى أصلا أم لا.

يا إلهي .. لقد شعرت للحظة أن الفتاة ليست مجنونة على الإطلاق .. وأن هناك سرا خطيرا وراء قصتها .. لم يدر بخلدي للحظة أن كل ما كان يدور حولي هو بمثابة ما يحدث في حلقات الكاميرا الخفية وكأن هناك من يصورني خلسة ليضحك المشاهدين!!!.

لقد انتهت أحداث قصتي هذه .. وبطريقة مفاجئة سخيفة لم أكن أتمناها .. لكن .. هذا ما حدث دون أي محاولة لتصوير نفسي كبطل!!! .. وقد نقلت لكم الأحداث بكل صدق وأمانة.. حتى وإن أظهر هذا أخطائي وهفواتي.

ورغم أن هذه القصة هي أول تجاربي كما أخبرتكم في البداية .. إلا أنها لم تكن أولى قصص الكتاب كما يفترض بها أن تكون .. وذلك خوفا من أن يقرأها بعضكم ويظن أن جميع القصص التالية مبنية على أكاذيب من مرضى نفسيين ويفتر بعدها حماسكم لقراءة الباقي.

المهم أنني ظننت أن تلك التجربة هي أغرب ما سأمر به خلال عملي كطبيب نفسي .. لكني كنت مخطئا دون شك .. فما تعرضت له بعد ذلك من تجارب .. فجر لدي تساؤلات لا حصر لها .. وجعلتني أتساءل طوال الوقت عن طبيعة النفس البشرية .. وعن عالمنا الذي يمتلئ بغرائب قد لا ينتبه لها الكثيرون .. لكني عشت الكثير منها لحظة بلحظة .. حيث تركتني حائرا تائها إلى لحظة قراءتكم لهذه السطور .. ولا شك أنكم قد اطلعتم الآن على بعضٍ من تجاربي تلك وعرفتم ما أعنيه .. وأن عددا غير قليل من المرضى الذين أشرفت على علاجهم كانوا بالفعل حالات غريبة .. وحالات نادرة!!!.


مكتبة
t.me/t_pdf
جريمة لم
تحدث
تحكيها: أسيل

سأحكي لكم هذه المرة قصتي مع (أسيل) .. إنها فتاة في الـ18 من العمر .. نحيلة بشكل يوحي أنها تمارس رياضة ما.. متوسطة الجمال بوجهة نظري .. لكنها لا تهتم كثيرا في إبراز جمالها كما هو الحال مع معظم الفتيات في مثل سنها.. فهي فتاة عملية جدا .. تربط شعرها بطريقة لا تعيقها عن كثرة الحركة .. وترتدي دائما ثيابا رياضية كونها تحب أن تبدو مشغولة طوال الوقت حتى وإن لم تكن كذلك!!!.

كان هذا الانطباع الأول حين رأيتها .. لكن والحق يقال .. شعرت أن هناك سحرا خاصا بهذه الفتاة .. شيئا ما يجعلك ترغب في الجلوس والحديث معها والتحديق بملامحها .. بل وشعرت أن هناك اهتماما متبادلا من طرفها!!! .. خاصة بعد أن أصبحت طرفا هاما في إنقاذ حياتها .. فهي الفتاة الوحيدة - حتى الآن - التي امتدت قصتي معها إلى خارج أسوار المستشفى!!!.. لذا لا أبالغ لو قلت إنها تدين لي بحياتها بالفعل.. وهذا ما يجعلها تزورني بين الحين والآخر من باب الامتنان والتقدير لما فعلته من أجلها .. فنجلس أحيانا في مكتبي في الفترات التي يقل فيها الزحام في المستشفى لنتحدث عن كل شيء تقريبا.

مهلا!! .. لا تأخذكم الظنون بعيدا .. فنحن صديقان فقط!!! .. ولم يحدث بيننا ما هو أكثر من تبادل الحديث حول العديد من القضايا العامة .. وربما هذا ما جعلني أيضا أكسب احترام (أسيل) بالكامل بسبب معاملتي لها دون مشاريع مستقبلية أو أفكار سوداء غير قابلة للنشر كما يفعل معظم الشباب مع الأسف!!!.

بدأ كل شيء قبل سنة تقريبا عندما تلقيت منها اتصالا هاتفيا .. حيث أخبرتني أنها حصلت على رقم هاتفي من إحدى قريباتي .. لأنها تريد استشارة نفسية ولكن بشرط أن لا أفتح لها ملفا في المستشفى كونها تجد في ذلك عارا لا يوصف على حد قولها .. وهذا أمر معتاد أتعرض له كثيرا.

لماذا لا تذهب إلى عيادة خاصة؟! .. لأنها لا تثق بالعيادات الخاصة وترى أنهم يريدون الحصول على أموالها فحسب.. كما أنها تبحث عن طبيب نفسي يوليها كل الاهتمام ولا يتعامل معها على أنها مجرد حالة مرضية جديدة .. وهذا ما جعل قريبتي تعطيها رقم هاتفي وتوصيني أن أهتم بأمرها .. المهم أنني وافقت في النهاية على مقابلتها وفق شروطها .. من

أجل قريبتي .. ولأنني - بصراحة - شعرت بشيء من الفضول للقاء صاحبة ذلك الصوت الجميل!!!.

عندما زارتني (أسيل) في مكتبي ورأيتها لأول مرة .. كانت ملامحها توحي وكأن هناك عبئا ثقيلا يجثم على روحها .. ولاحظت أيضا أن وجهها يحمل آثارا لبقايا إصابات وخدوش بسبب حادث مروري تعرضت له منذ فترة كما علمت منها.

وبعد عبارات الترحيب .. جلست مقابلي .. وقالت بجدية:

- أشكرك على موافقتك لمقابلتي يا دكتور .. والواقع أنني لا أعلم إن كنت ستصدقني .. لأن قصتي غريبة للغاية .. لكني أرجوك أن تفعل ولا تشك لحظة بما سأقوله لك!!! .. لقد اخترت المجيء إليك بناء على نصيحة من إحدى صديقاتي وهي قريبتك كما تعلم .. إذ تقول إنك مختلف عن باقي الأطباء النفسيين وتوحي بالثقة .. كما أنك تتعامل مع المريض نفسه .. وليس مع المرض .. وشتان بين الاثنين كما تعلم .. لا أعرف إن كانت تقول هذا لأنها قريبتك .. أم لأنها تراك الأنسب لحل مشكلتي .. المهم أنني أحتاج إلى عونك يا دكتور .. فأنا أعاني من مشكلة تعصف بحياتي!!!.

قلت لها بصدق أمام توسلاتها:

- (أسيل) .. أخشى ألا أكون عند حسن ظنك .. فلست حلالا للمشاكل .. إنني مجرد طبيب نفسي لا أختلف عن باقي الأطباء .. ولا أصنع المعجزات .. لكنني سأستمع إليك على كل حال .. تفضلي .. هاتي ما عندك.

زفرت بقوة وهي تقول:

- لا أعلم كيف أبدأ .. فلا أعرف كيف بدأت القصة أصلا .. لقد تعرضت لحادث مروري قبل شهر تقريبا .. حيث اصطدم رأسي بقوة في عجلة القيادة بسبب خلل في كيس الهواء الواقي .. ولولا حزام الأمان الذي أحرص على ارتدائه.. لفقدت حياتي نفسها .. فالسيارة قد تحطمت بالكامل .. لكن لم يحدث لي شيء يذكر لحسن الحظ سوى بعض الكدمات في أنحاء متفرقة من جسدي وفي وجهي كالتي ترى ما تبقى منها الآن .. وستزول مع مرور الأيام.. المشكلة هي في الكدمة القوية التي أخذتها في رأسي .. فقد فقدت بسببها جزءا من ذاكرتي .. ذلك الجزء الخاص بالأحداث التي مررت بها في الساعات التي سبقت الحادث.. هذا ما

يقوله الأطباء .. وقد يكون كلامهم صحيحا .. ولكن أشعر أن ما حدث لي أكبر من هذا بكثير!!!.

سكتت قليلا أمام نظراتي المترقبة .. ثم قالت بارتباك:

- لقد فقدت الوعي بعد الحادث!!! .. واستيقظت لأجد نفسي في المستشفى إلى جانب والدي ووالدتي وبعض الأقارب.. حيث كان الجميع ينظرون إليّ مبتسمين ويهنئوني على نجاتي ويطلبون مني ألا أقلق .. وقد سمح لي الطبيب بمغادرة المستشفى بعد أيام قليلة بالفعل على أن أقضي فترة للنقاهة في البيت .. ولكن .. لم تكن هذه المشكلة ....

كنت أستمع إليها باهتمام شديد .. فسألتها وكأنني أحثها على مواصلة الكلام:

- ما الذي حدث يا (أسيل)؟! .. ماذا حدث بالضبط؟!.

نظرت إلي بقلق .. و:

- عندما استيقظت في المستشفى .. كنت على يقين أنني ارتكبت جريمة قتل قبل تعرضي للحادث بساعات قليلة ..

جريمة قتل أعرف كل تفاصيلها .. هناك طفلة صغيرة قتلتها بوحشية .. ثم دفنتها في حديقة منزلنا!!!.

نظرت إليها مذهولا .. وقد نهضت لا شعوريا من على الكرسي لأسألها بذعر:

- ماذا؟؟! .. ومن هذه الطفلة؟؟! .. ولماذا قتلتيها؟!! .. إنك لا تبدين لي كقاتلة.

ردت بحزن:

- لا أعرف .. صدقني لا أعرف أي شيء!!!.. لكني عندما استيقظت كنت على يقين بارتكابي لتلك الجريمة!!!.. أرجوك لا تظن أنني أخدع نفسي يا دكتور .. أرجوك.. لقد ارتكبت الجريمة بالفعل.. ربما لهذا السبب تحديدا كنت أقود سيارتي بجنون ابتعادا عن مسرح الجريمة دون أن أذكر إلى أين كنت متجهة أصلا!!! .. وربما هذا ما تسبب في ارتباكي أثناء القيادة وتعرضي للحادث.. إذ يقول الشهود إنني كنت أقود بتهور وسرعة في الشوارع الداخلية للمنطقة قبل أن تفقد السيارة توازنها وأصطدم بعامود الإنارة الذي انتزع من مكانه من قوة الضربة!!!!.

سألتها باستغراب:

- المعذرة لكن هناك تناقض كبير في كلامك .. تقولين إنك على يقين من ارتكابك لجريمة قتل .. لكنك وفي نفس الوقت لا تعرفين متى قمت بارتكاب الجريمة ومن هي ضحيتك؟؟!.. كيف؟!! .. ثم .. هل أبلغت والدك بذلك؟!.

أومأت برأسها إيجابا بقوة وهي تقول:

- بالتأكيد!!! .. لقد فعلت ذلك حال استيقاظي في المستشفى!!!.. فسببت للجميع رعبا هائلا .. لكني .. لكني عجزت تماما عن الرد على أسئلتهم!! .. فمن هي هذه الطفلة التي قتلتها؟؟! .. ولماذا قتلتها؟! .. بل وكيف جرؤت على ارتكاب عمل كهذا لو كان حقيقيا!! .. هذه أسئلة لا أملك الإجابة عليها .. لأنني أنا نفسي لا أذكر التفاصيل الدقيقة .. فقد فقدت ذلك الجزء من ذاكرتي والخاص بأحداث الساعات التي سبقت الحادث كما أخبرتك .. لكني رغم ذلك طلبت من والدي إبلاغ الشرطة .. إلا أنه رفض تماما متعللا أنني واهمة دون شك وأن الأمور مختلطة في ذهني .. لكني قمت بذلك بنفسي .. نعم .. اتصلت بالشرطة بنفسي!!.

رددت عليها باهتمام:

- وماذا فعل رجال الشرطة؟؟!.

قالت بأسى:

- لم يصدقوني حين أخبرتهم بالأمر .. خاصة أنني لم أملك إجابة على تساؤلاتهم .. لكنهم -وأمام إلحاحي- نبشوا حديقة منزلنا بالكامل حيث من المفترض أن أكون قد خبأت الجثة هناك .. إلا أنهم لم يعثروا على شيء!!!.. يقول الطبيب إن ضربة الرأس القوية التي تعرضت لها في الحادث قد تكون سببا لادعاءاتي تلك!!! .. فبسببها قد تختلط الذكريات مع قصص قرأتها أو أفلام شاهدتها لأصنع من كل هذا حادثة جديدة غير حقيقية على الأرجح.. خاصة أنني مدمنة على قراءة القصص البوليسية!!!.

وجدت أن تفسير الطبيب مقنعا للغاية وهو يطابق تحليل الطب النفسي أيضا .. فسألتها ببساطة:

- ما المشكلة إذا؟؟! .. أرى أن القضية محسومة كما قال الطبيب؟! .. إنها مجرد خيالات وتهيؤات بسبب الضربة القوية التي تعرضت لها في رأسك.

ضربت المنضدة بكفها بقوة .. وهي تقول بعصبية واضحة:

- لا يا دكتور .. صدقني .. الأمر أشد تعقيدا .. إنني واثقة من حدوث الجريمة .. واثقة أنني فعلتها لسبب لا أذكره الآن .. وهذا الشعور يتزايد يوما بعد يوم بشكل غريب .. حتى وصل اليوم تحديدا إلى درجة اليقين دون أن أعرف السبب!!!! .. لذا لم أطق الانتظار أكثر من ذلك.. فاتصلت بك وطلبت لقاءك سريعا .. لقد قتلت تلك الطفلة المسكينة بالفعل .. وهي مدفونة في حديقة بيتنا .. و .....

سكتت وقد بدت عليها علامات الحرج حين تذكرت أن رجال الشرطة قد نبشوا المكان بالفعل دون أن يعثروا على شيء .. فأردفت بتوتر واضح:

- ربما .. ربما أكون قد أخطأت في مكان وجود الجثة فحسب!!!.

نظرت إليها .. ثم قلت وعلى وجهي علامات التفكير العميق:

- ثقتك الشديدة وإصرارك على ارتكابك للجريمة يا (أسيل) لا يعني أنك قمت بارتكابها فعليا .. صدقيني .. أنا أعرف ما أتحدث عنه.

لم تجد ما تقوله .. فأطرقت برأسها وهي تفكر بحزن عميق.. قبل أن أقول بتعاطف:

- المعذرة.. لا يوجد لدي ما أقوله لك!!!.. الأمور واضحة.. هناك خلل في ذاكرتك تسبب به الحادث .. هذا ما قاله طبيبك .. وهذا ما تأكد منه رجال الشرطة .. وهذا ما أقوله أنا أيضا بصفتي طبيبا نفسيا!!! .. ربما تعلمين أن الذاكرة البشرية أمرها مربك ومحير للغاية .. إذ لا يوجد ما يسمى بمركز الذاكرة في المخ البشرى .. فالذاكرة هي خلاصة تآزر مجموعة من أجزاء ومراكز المخ في آن واحد*.. ربما إصابة رأسك قد سببت لمعلوماتك ارتباك كما قال الطبيب.. مما جعلك تختلقين القصة كاملة وتقتنعين بحدوثها بكل تفاصيلها رغم أنها لم تحدث أصلا .. لكنك ستتعافين من حالة فقدان الذاكرة المحدودة هذه على كل حال وتعودين بعدها إلى سابق عهدك لتعرفي أنك كنت واهمة بالفعل.

نظرت إلي بأسى ولسان حالها يقول:

- جئت أطلب منك العون لتقول لي هذا الكلام؟؟!!.

---

* حقيقة

وكأنني سمعت ما يدور برأسها .. فقلت لها بشيء من الخجل:

- ما الذي تتوقعين مني فعله يا (أسيل)؟؟!

ردت بحدة لم أتوقعها:

- أن تصدقني على الأقل ولا تكرر كلام الأطباء .. إنني أشعر بقلق بالغ .. فالبقاء في البيت يخيفني كثيرا .. لأنني واثقة من حدوث تلك الجريمة وواثقة من أنني دفنت الجثة في البيت أيضا!!! .. هل تستطيع أن تنام في بيت تعرف أن هناك جثة مدفونة في أحد أركانه وأنك أنت من ارتكبت الجريمة ودفنتها هناك؟؟!! .. إنني مقيمة في البيت وحدي الآن مع الخادمة .. فقد رحل والداي وشقيقي إلى (الشارقة) صباح اليوم لحضور حفل زفاف أحد الأقارب.. بقائي في البيت وحيدة مع الخادمة موحش بشكل لا يصدق .. خاصة وأن شعوري بارتكاب الجريمة يتزايد إلى درجة غير معقولة يوما بعد يوم .. لم أعد أحتمل أكثر .. هل تفهمني؟!!.

هززت رأسي مبتسما بود وكأنني أقول:

- لا يوجد ما أضيفه يا عزيزتي!!!.

نظرت إلي بأسف .. ثم حسمت أمرها ونهضت بعد أن ألقت علي تحية باردة .. وكأنني مذنب بشكل أو بآخر!!! .. ماذا تريدني أن أفعل؟؟! .. جاءت لتخبرني بارتكابها لجريمة تأكد رجال الشرطة أنها لم تحدث أبدا .. بل وبحثوا في حديقة منزلها بناء على رغبتها دون أن يعثروا على شيء .. والأطباء نفسهم أخبروها أن هناك خللا ربما أصاب ذاكرتها بسبب الحادث .. القضية واضحة .. ما الذي سأضيفه أنا؟؟!.

لا أنكر أنني شعرت بشيء من الضيق بسبب الانطباع الذي تركته لدي (أسيل) .. لا يوجد شاب يحب أن يترك انطباعا كهذا أمام فتاة .. فلا شك أنها تقول لنفسها في هذه اللحظة:

- أيها الأحمق .. ظننتك مختلفا وجئت لأخبرك بمشكلتي.. لتعيد على مسامعي ما يقوله الجميع؟؟!!.

هذه هي المشكلة التي أعانيها دائما .. قلقي الدائم من رأي الناس بي .. وهو ينم عن ضعف أصيل في شخصيتي كما هو واضح .. وهذا مثال مدرسي واضح وصريح أيضا للمثل الشعبي (باب النجار مخلّع) .. كوني طبيب نفسي وأعاني من مشاكل متأصلة في الشخصية.

مرت بعدها ساعات العمل بصورة عادية .. فمارست عملي المعتاد وقمت بمتابعة الحالات المرضية الموجودة في المستشفى.. حتى نسيت تماما كل ما يتعلق بـ(أسيل) .. لتنتهي ساعات العمل وأعود بعدها إلى البيت شاعرا بشيء من الإرهاق.

قضيت ما تبقى من اليوم في البيت مع أفراد العائلة ثم توجهت إلى غرفتي مستمتعا بالهدوء وكوب القهوة الساخن الذي أحتسيه بنهم أثناء جلوسي أمام شاشة الكمبيوتر .. حيث اندمجت تماما بمتابعة بعض الأخبار الرياضية .. قبل أن أنهض شاعرا بالتعب جراء الجلوس المتواصل أمام الشاشة.

ألقيت بعدها بجسدي على الفراش شاعرا بمتعة الفراغ وعدم وجود أي مسؤوليات .. ثم رحت أعبث بهاتفي النقال وأمرر بصري على المكالمات الهاتفية التي تلقيتها اليوم كما نفعل جميعا بين الحين والآخر .. قبل أن أرى ذلك الرقم الغريب .. يااااه .. إنه رقم تلك الفتاة .. رقم (أسيل) .. لقد نسيتها تماما.

أنظر إلى الرقم وأتذكر قصتها واقتناعها الشديد بما كانت تقوله كعادة كل مريض نفسي يصر على أنه ليس كذلك.. الفارق هنا أن (أسيل) ليست مريضة .. إنما هو ذلك الحادث فحسب كما نعلم جميعا.

تمر في ذهني تفاصيل قصتها وأشعر بالأسف لأنني تركت انطباعا سيئا لديها وإن كان لا ذنب لي في الأمر كما تعلمون.. و .. هل تعرفون لحظات الإلهام؟!! .. تلك اللحظة حين تبدأ فكرة ما بالانفجار في عقلك فجأة لتستحوذ على كل خلاياه.. خاصة بعد أن دار في عقلي مرة أخرى حواري مع (أسيل).. فأتذكر كل فقرة من كلامها وتتسع عيناي أكثر وأكثر.. هناك نقاط كثيرة لم أفكر بها في بادئ الأمر .. ربما أنا أبالغ بأفكاري تلك .. ولكن .. لو جمعت كل هذه النقاط المتفرقة.. ولو أضفنا بعض الاستنتاجات لما قالته (أسيل) فستصبح قصتها معقولة للغاية .. لقد أخبرتني أنها خرجت من بيتها في يوم الحادث لكنها لا تتذكر إلى أين كانت ذاهبة أصلا بسبب ارتطام رأسها وفقدانها جزءا من ذاكرتها كما علمنا جميعا .. ولو وضعنا في الاعتبار أنها لم تقتل أحدا .. فلماذا خرجت من البيت

متوترة؟؟! .. أنا لم أفكر في تلك النقطة في بادئ الأمر عندما أخبرتني بقصتها .. وهناك أمر آخر .. لماذا ازداد توترها كثيرا الآن ووصل إلى درجة لم تعد تحتملها - كما تقول - مع سفر والديها وشقيقها؟!! .. هذه تساؤلات هامة جدا لم تطرأ بذهني في البداية .. ثم .. مع شيء من الخيال .. إنني.. إنني أرسم في ذهني تفاصيل ما حدث .. مهلا .. مهلا.. مهلا .. هل .. هل هذا معقول؟!!.. ماذا لو كانت (أسيل) محقة؟!!!.. ستكون كارثة حقيقية .. الأمر يستحق المحاولة على الأقل والتأكد من نظريتي مهما كانت غريبة!!!.

نظرت إلى الساعة بقلق .. إنها تقترب من الحادية عشرة والنصف مساء .. لكن .. لا بد من الاتصال بـ(أسيل) الآن مهما سبب لي ذلك من إحراج .. وإلا فسأندم طوال حياتي لو اتضح أن استنتاجاتي صحيحة .. لذا فقد حسمت أمري.. وضغطت على زر الاتصال بيد مرتجفة .. هاتفها النقال مغلق!!! .. هل هذه صدفة؟!! .. أخشى أن يكون ما ظننته حقيقيا .. يجب أن أتصرف بسرعة!!! .. قد أكون مخطئا .. لكن .. أن أبدو أحمقا أمام الجميع أفضل من أن يحدث ما

أظنه سيحدث!!! .. ما الذي أتحدث عنه؟؟! .. ستعرفون كل شيء لاحقا .. أعدكم بهذا.

اتصلت بقريبتي .. واعتذرت لها بتوتر عن هذا الاتصال المفاجئ .. ثم طلبت منها سريعا أرقام (أسيل) الأخرى .. رقم البيت .. أو رقم آخر لهاتفها النقال .. لكن .. ابتسمت قريبتي بخبث وأخبرتني أن هذا هو رقم (أسيل) الوحيد وهي لا تعرف رقم هاتف منزلها!!!.

طلبت من قريبتي سريعا أن تخبرني بعنوان منزلها على الأقل .. فسألتني بتوجس عن سبب طلبي هذا .. لكني صرخت بها بحدة وبشكل غير لائق إطلاقا كي أحصل منها على العنوان .. فأخبرتني باستغراب واستنكار واضحين أنها لا تعرف عنوان البيت .. لكنها تعرف كيف تصف لي مكانه.

أخذت منها الوصف سريعا .. وأغلقت الهاتف بشكل وقح مع الأسف .. سأعتذر لاحقا .. المهم أن أتأكد من نظريتي أولا.. ترى .. هل أتصل بالشرطة؟!! .. وهل سيستمعون أصلا لاستنتاجي الغريب هذا؟! .. حقيقة لا أعلم!! .. لكني سأقطع الشك باليقين وأتأكد بنفسي .. لا يوجد حل آخر!!.

خرجت مسرعا ورحت أثناء الطريق أتصل مرة أخرى وأخرى بـ(أسيل) .. لا فائدة .. الجهاز مغلق .. البدالة؟! .. موضة الاتصال بالبدالة لمعرفة أرقام هواتف البيوت انتهت منذ زمن طويل .. لكن يجب أن أحاول!!.

اتصلت بالبدالة .. وأعطيتهم الاسم الثلاثي لوالد (أسيل) .. كيف عرفت اسم والدها؟! .. لقد أخبرتني به قريبتي قبل قليل .. لحظات قليلة متوترة .. قبل أن ترد عاملة البدالة أخيرا وتعطيني رقم الهاتف .. لحسن الحظ أن الظروف لصالحي .. فعادة ما تكون أرقام البيوت غير مسجلة أو سرية أو .. إلخ .. أو ربما اندثرت هذه العادة أيضا .. لا أعلم.

اتصلت بالبيت .. لا أحد يرد على الهاتف .. اتصلت مرة ثانية وثالثة دون رد أيضا .. يا إلهي .. كل ما يحدث يوحي بصحة استنتاجي المجنون .. ما هو استنتاجي؟؟! .. ستعرفونه بعد قليل .. بعد أن أتأكد من صحته!!!.

و .. حسب وصف قريبتي .. وصلت أخيرا إلى بيت (أسيل) في منطقة (العديلية) .. خفق قلبي بشدة والتوتر

يتصاعد بشكل غريب وأنا أقف أمام بيتها .. لكني التقطت نفسا عميقا محاولا السيطرة على نفسي .. وأوقفت سيارتي على جانب الشارع الداخلي بصورة مشبوهة دون شك .. فنحن نتكلم عن حي صغير وليس عن شارع عام!!!.

لا أدري ما يجب فعله .. اتصلت مرة أخرى على هاتفها النقال .. الجهاز ما زال مغلقا .. أتصل على المنزل مرة أخيرة .. لا أحد يرد .. ثم .. فكرت .. فكرت بطرق الباب!!! .. نعم .. سأسأل عن عنوان ما وأطلب العون .. على الأقل سأتأكد من شكوكي إن كانت خاطئة أو في محلها .. سأبدو بمنتهى الحمق وأنا أسأل عن عنوان ما بمثل هذه الساعة .. لكن .. لا يوجد حل آخر!!!.

نزلت من السيارة .. وتوجهت بتوتر شديد إلى الباب .. ثم .. ضغطت بيد مرتجفة على زر جهاز المناداة وهو الجهاز الذي انتشر في جميع بيوت (الكويت) تقريبا في مرحلة ما بعد الغزو العراقي .. لا أحد يرد .. ضغطت الزر مرة أخرى .. لترد الخادمة أخيرا بصوت ناعس وبلغة عربية ركيكة تسأل عن هوية الزائر .. سألتها بارتباك شديد عن بيت (سعد عبدالعزيز

الـ ...) وهو أول اسم طرأ ببالي .. فأجابت أن هذا ليس بيته.. بالتأكيد يا حمقاء!!! .. لكني سألتها إن كان هناك أحد من أصحاب البيت ربما يستطيع أن يدلني على بيته .. فطلبت مني الانتظار.

لحظات أخرى .. قبل أن أسمع صوتا أنثويا رقيقا يسألني بحذر عما أريده .. إنها (أسيل) .. اللعنة .. يا له من موقف محرج وسخيف للغاية .. ماذا سأفعل؟؟!! .. تنحنحت قليلا قبل أن أسألها عن عنوان بيت ذلك الشخص الذي اخترعت اسمه قبل قليل .. و .. بالطبع لا تعرف أحدا بهذا الاسم هنا .. ثم صمتت قليلا وكأنها تنتظر مني أن أشكرها وأرحل .. لكني قررت أن أتكلم أخيرا .. ولو اتضح أنني مخطئ في استنتاجي فسأموت من الخجل .. لا يوجد حل آخر سوى هذا.

قلت بتلعثم:

- (أسيل)؟!! ..

شعرت بأنها صعقت عندما ناديتها باسمها!! .. إذ ردت علي بحذر شديد:

- من أنت؟؟!!.

قلت بتوتر:

- إنه أنا .. الطبيب النفسي الذي قمت بزيارته صباح اليوم.

بدا واضحا أنني آخر شخص كانت تتوقعه .. فسألتني باستغراب حقيقي:

- مرحبا .. كـ .. كيف حالك .. مـ .. مـ .. ماذا تفعل .. من أين أتيت؟! .. لماذا تـ ...؟!!

لم تكمل عبارتها غير المفهومة .. ولا ألومها على ذلك.. فوجودي عند باب بيتها صدمة حقيقية بكل تأكيد!!! .. و.. قبل أن تحاول تعديل جملتها الأخيرة .. سألتها بحذر:

- (أسيل) .. المعذرة على هذه الزيارة الغريبة .. هل أنت وحيدة في البيت؟!! .. أرجوك أجيبي على سؤالي؟!.

ردت علي باستغراب وقد اتخذت نبرتها جانبا عدائيا متوجسا:

- ما هذا الذي تفعله؟؟!! .. وكيف عثرت على منزلي؟!!.. هل أنت معتاد على ملاحقة الفتيات بهذه الطريقة الوقحة؟؟!.

قلت بتوتر وأنا أنظر حولي آملا ألا يستمع إلى حديثنا أحد من سكان الحي:

- لست هنا لألهو إن كان هذا ما تظنينه .. أرجوك أجيبيني.. هل هاتف المنزل يعمل؟!! .. إنني أتصل بك منذ قرابة نصف الساعة.. ولا أحد يرد .. كما أن هاتفك النقال مغلق.. هل تعرفين هذا؟!.

قالت بغضب واضح وبصوت خافت كي لا يسمعها أحد في الحي وهي تتحدث من جهاز المناداة:

- إنني لا أفهم شيئا .. لماذا تتصرف بهذه الطريقة الغريبة؟! .. ما الذي تريد قوله؟!!.

زفرت بقوة وأنا أقول بنفاد صبر:

- (أسيل) أرجوك أجيبي على أسئلتي أولا وستعرفين كل شيء.

ردت بحذر:

- هاتف المنزل لا يعمل بالفعل!!! .. فقد انتبهت إلى انقطاع الخط منذ ساعتين تقريبا .. وهاتفي النقال تعرض للتلف اليوم بسبب خطأ غير مقصود من الخادمة عندما أوقعت عليه كوبا من الماء .. لكن .. كيف عرفت كل هذا؟!.

يا إلهي .. هذا مستحيل .. هناك احتمال كبير إذا أن يكون استنتاجي صحيحا .. كل شيء يوحي بذلك .. إن (أسيل) معزولة تماما عن العالم الخارجي الآن .. فسألتها بذعر:

- (أسيل) أرجوك .. الأمر أكبر بكثير مما تظنينه .. أخبريني فحسب .. هل أنت وحيدة في المنزل؟!! .. أرجوك أجيبيني.. أرجوك أن تثقي بي!!!.

ردت بامتعاض:

- إنني وحيدة هنا مع الخادمة بالفعل .. لقد سافر والداي وشقيقي إلى (الشارقة) صباح اليوم لحضور حفل

زفاف أحد الأقارب .. أعتقد أنني أخبرتك بذلك عندما قابلتك في المرة الأولى في مكتبك .. وهم لن يتأخروا كثيرا على أية حال .. سيعودون بعد يومين فحسب .. كما أن خالي يتصل بي باستمرار ليطمئن علي .. ما المشكلة؟!.

لا أعرف ما أقوله .. كل ما بذهني مجرد استنتاجات.. لكني لا أجد بدا من الانتظار هنا طوال الليل للتأكد من نظريتي!!! .. إن انقطاع هاتف البيت وهاتفها النقال وسفر والديها وتركها في البيت وحيدة مع الخادمة يدعم استنتاجي إلى حد مخيف!!!.

تنحنحت .. وقلت بسرعة وبصوت يشوبه الاعتذار:

- المعذرة يا (أسيل) .. سأشرح لك كل شيء فيما بعد .. إلى اللقاء!!!.

ردت باستنكار واضح:

- ولكن .. ولكن .. أنا لم أفهم شيئا .. أنا .... لم أعطها الفرصة لتكمل عبارتها .. فقد بدا صوت خطواتي المبتعدة واضحا

لها على ما أظن .. إذ ركبت سيارتي بعد ذلك وخرجت من الحي كي أعطيها انطباعا أنني رحلت بالفعل.. لكنني في واقع الأمر عدت مرة أخرى بعد دقائق قليلة.. وركنت سيارتي على بعد مسافة قريبة نسبيا تتيح لي مراقبة بيتها جيدا!!! .. نعم .. لقد قررت الانتظار ومراقبة بيت (أسيل)!!!.

على الأرجح سأسهر في سيارتي لوقت متأخر جدا من الليل .. وستكون ليلة طويلة .. خاصة أن علي أن أذهب إلى العمل غدا دون نوم إذا ما تطلب الأمر ذلك .. لا توجد حلول أخرى .. كل الأمور تسير بما يتفق مع استنتاجاتي!!! .. كل الدلائل تصرخ: إنك على حق .. إنك على حق!!!.

أرجو ألا يثير وجودي هنا شكوك الجيران .. فلو لاحظ أحدهم وجودي .. سيكون من حقه أن يسألني عن سبب وقوفي هنا واستعراض بطولاته أمام الجميع .. وسيكون علي حينها توضيح سبب جلوسي وانتظاري المريب في سيارتي طوال الوقت بجانب هذا البيت!!!.

الساعة الثانية عشرة والنصف .. الساعة الواحدة والنصف فجرا .. الساعة تقترب من الثالثة فجرا وقد شعرت أن جسدي

قد تخشب بالكامل بسبب جلوسي في السيارة ومراقبتي للمكان دون أن يكسر حاجز الصمت سوى صوت المذياع الخافت الذي يعمل بهدوء بعد أن أطفأت محرك السيارة.

زفرت بقوة .. ورحت أنتظر .. ويا له من انتظار .. الملل سيقتلني قتلا .. ولكن الإنسان بداخلي يصرخ .. لا يمكن أن أسمح بشيء كهذا أن يحدث .. إنني أنتظر .. أنتظر .. الساعة الثالثة والربع .. هل أرحل وأنسى الأمر برمته .. ربما أن ... مهلا .. إنني ألمح شخصا من جنسية آسيوية كما هو واضح .. ربما هندي الجنسية .. لا أعلم .. إنه يمشي بهدوء وتوجس شديد مارا بالقرب من سيارتي!!! .. حتى إنني أغلقت المذياع بسرعة وانكمشت في مقعدي بهدوء آملا ألا يلحظ وجودي .. أراه وقد توقف قليلا ليلتفت يمينا ويسارا .. قبل أن يتجه إلى بيت (أسيل) تحديدا!!!! .. لا يمكن .. هل استنتاجي دقيق إلى هذا الحد؟؟!!.

بعد أن اطمأن الرجل لخلو المكان في هذه الساعة المتأخرة.. توجه ناحية الباب الرئيسي لبيت (أسيل) .. فتوقف هناك لحظات قليلة .. قبل أن تفتح له الخادمة وتدخله سريعا ثم تغلق الباب بتوجس شديد .. لا شك أن هناك اتفاقا مسبقا

بينهما كي يجدها في انتظاره في هذه اللحظة تحديدا دون أن يقرع الجرس!!!.

و .. بدأت العاصفة!!! .. إذ دب النشاط في كل ذرة من خلايا جسدي فجأة .. وخرجت من سيارتي مسرعا وأنا أمسك بهاتفي النقال أتصل بشرطة النجدة وأركض في نفس الوقت متوجها ناحية بيت (أسيل) .. وما إن وصلت عند الباب.. حتى ضغطت زر الجرس أو جهاز المناداة بشكل متكرر كي أوقظ (أسيل) من النوم .. أفعل هذا وأنا ممسك بالهاتف النقال بيدي الأخرى .. و ..

- آلووو .. الطوارئ معك!!!.

إنه موظف بدالة الطوارئ .. تحدثت بصوت مرتفع للغاية وكأن شياطين الدنيا كلها تلاحقني:

- هناك جريمة ستحدث بعد قليل .. هناك متسلل لبيت في منطقة (العديلية) .. سينهب البيت ويقتل من فيه!!! .. بسرعة .. اسمي الدكتور (.....) .. لديكم هاتفي الآن ولديكم اسمي .. أرجوكم بسرعة .. بسرعة .. بسرعة .. عنوان البيت هو (........).

كنت أتحدث وأجيب على أسئلة بدالة الطوارئ وأنا أضرب جهاز المناداة بقوة وإصرار .. لا شك أنني أثرت ضجة هائلة داخل بيت (أسيل) .. لحظات قليلة قبل أن يأتيني صوتها يسألني بتوتر وقلق عن هوية الطارق .. صرخت فيها بقوة:

- (أسيل) .. أنا الطبيب النفسي .. اختبئي في غرفتك واقفلي على نفسك الباب .. أرجوك افعلي ما أقوله فورا .. لقد اتصلت بالشرطة وهم في طريقهم إلى هنا!!!.

سألتني بجزع:

- لماذا؟!! .. ماذا حدث أيها اللعين؟؟! .. إنك لا تتوقف عن....

قاطعتها بصرخة هائلة:

- الآااااااااااااان يا (أسيييييييييل) .. أرجوك نفذي ما أقوله لك!!!!.

شعرت بحركة خلفي .. وإذا ببعض الجيران معظمهم مرتديا ملابس النوم يتقدمون ناحيتي مسرعين يسألونني عما يجري هنا .. لا شك أن الضجة التي أحدثتها قد جاءت بنتيجة!!! ..

أخبرتهم بسرعة أن هناك متسللا في هذا البيت وهو على وشك ارتكاب جريمة .. وأن ابنة صاحب البيت في خطر حقيقي.

لم يطل الانتظار لحسن الحظ .. دقائق قليلة وإذا بدوريتين شرطة تأتيان مسرعتين ويخرج منهما أربعة رجال شرطة برتب متفاوتة كما بدوا لي .. فأخبرتهم بكل شيء .. وأن هناك رجلا من جنسية آسيوية أدخلته الخادمة إلى البيت وهما على وشك ارتكاب جريمة سرقة وربما قتل!!!.

ضغط رجال الشرطة على زر جهاز المناداة دون أن يرد أحد.. ثم فتحوا الباب بطريقتهم الخاصة .. واقتحموا المكان.. في حين بقي أحدهم في الخارج ليمنع المتسلل من الخروج .. نسمع صوت ضجة في الداخل وأقدام تجري هنا وهناك .. قبل أن يخرجوا من البيت وهم ممسكين بالرجل الذي رأيته يدخل قبل قليل!!! .. لتخرج بعدهم (أسيل) مرتدية عباءة وكأنها امرأة طلقها زوجها قبل قليل وطردها من البيت!!! .. الحقيقة أن مظهرها بدا مضحكا إلى حد كبير لكن الموقف لم يكن ليسمح بذلك بالطبع .. خاصة مع الخوف الشديد وعدم الفهم كما بدا على ملامحها.

كان جسدها يرتجف بالكامل .. فذهبت لأقف بجانبها كي أمنحها شعورا بالألفة .. ولم تكذب خبرا .. فما إن رأتني .. حتى اغرورقت عيناها بالدموع وراحت تبكي وتنتحب .. ولا ألومها على ذلك .. فهي لا تفهم شيئا مما يحدث .. ولا حتى رجال الشرطة يفهمون .. كل ما يعرفونه الآن هو أن هناك دخيلا اقتحم البيت وكان على وشك ارتكاب جريمة ما!!! .. وحده (شخصي المتواضع) الذي اكتشف الحقيقة وعرف ما يدور هنا.

بالطبع توجهنا جميعا بعد ذلك إلى المخفر .. الخادمة الآسيوية .. (أسيل) .. الرجل المتسلل الذي عثروا عليه بالداخل .. أنا .. وخال (أسيل) الذي أيقظته من النوم ليلحق بها هناك .. جميعنا كنا نقف أمام الضابط .. حيث توجب علي شرح ما يحدث .. فالقصة كلها قد بدأت وانتهت بي أنا!!!.

وأمام أعين الجميع المترقبة .. تكلمت أخيرا .. وشرحت لهم كل ما أعرفه بتوتر وخجل شديدين كعادتي كلما تحدثت أمام مجموعة من الناس:

- إحم .. إحم .. المعذرة على كل ما فعلت .. لكني كنت محقا لحسن الحظ .. إنني طبيب نفسي .. وقد زارتني

(أسيل) صباح أمس في المستشفى .. وعرفت منها أنها قد تعرضت لحادث مروري سبب لها خللا في ذاكرتها .. فقد استيقظت من غيبوبتها وهي تقسم وتؤكد أنها ارتكبت جريمة قتل بحق طفلة صغيرة .. وأنها دفنت جثتها في حديقة بيتها الداخلية .. لكنها لم تكن تعرف اسم الطفلة التي تدعي أنها قتلتها .. ولا حتى الدافع وراء ارتكابها لجريمتها .. كما أن رجال الشرطة لم يعثروا على شيء في حديقة المنزل .. ومع سيرة (أسيل) الطيبة وحياتها الطبيعية التي لا تختلف عن حياة أي فتاة في مثل سنها .. أهمل الجميع الأمر وظنوا أنها تعاني من مشكلة في ذاكرتها بالفعل بسبب الحادث!!.

قلت هذا الكلام أمام صمت وترقب الجميع دون استثناء .. فازدردت لعابي وأردفت مستطردا:

- لقد خطرت بذهني تساؤلات عديدة .. خاصة حين تذكرت أمرا بالغ الأهمية .. إذ قال شهود العيان - كما نقلت لي (أسيل) - إنها كانت تقود سيارتها بتوتر وتهور شديدين عند خروجها من البيت مما تسبب بارتكابها الحادث؟!! ..

لكن أحدا لم يسأل أو يهتم لمعرفة السبب .. فلماذا كانت تقود سيارتها بتهور أصلا وكأنها تهرب من شيء ما؟؟!!.. وأين كانت ذاهبة؟!! .. ثم .. لماذا تزايد عندها الشعور بارتكابها لتلك الجريمة صباح أمس حتى وصل إلى حد لا يطاق على حد قولها؟؟! .. ولو سلمنا بأنها ارتكبت تلك الجريمة فعليا .. فهل يعقل أن تقوم بدفن جثة طفلة صغيرة في حديقة بيتها؟!! .. لا يوجد قاتل في العالم يرتكب جريمته ويدفن الجثة في حديقة منزله الخاصة.. إلا بالطبع لو قتل أحدا من أهل البيت نفسه!!!! .. دعكم من أنه لا يوجد أطفال أصلا في بيت (أسيل) كما علمت منها.. هذه النقاط مجتمعة نبهتني إلى أمر هام للغاية .. خاصة عندما تذكرت أيضا أن (أسيل) تقيم وحدها مع الخادمة ليومين قادمين.

راحوا ينظرون إلي بانبهار وأنا ألتقط أنفاسي لأكمل:

- بدأت بالتفكير أن (أسيل) قد تكون محقة في كلامها ولكن بطريقة أخرى؟!! .. فقد واتتني فكرة غريبة استبعدتها تماما في البداية .. لكن .. عندما ربطت كل المعلومات المتوافرة

لدي.. وجدتها تتجه إلى استنتاجي بإصرار غريب!!! .. لقد كنت أقول لنفسي إن (أسيل) ربما تكون قد سمعت الخادمة بالصدفة تتكلم عبر الهاتف مثلا مع صديقها أو عشيقها عن ارتكابهما لجريمة قتل .. قتل (أسيل)!!!.. ومن ثم سرقة مقتنيات البيت الثمينة والهرب بعد ذلك!!! .. أعتقد أن (أسيل) سمعت كل هذا وشعرت برعب حقيقي.. فخرجت بسيارتها من البيت متجهة إلى بيت خالها أو أحد أقاربها وربما راحت تتصل بأحد منهم لتخبرهم بما سيحدث دون أن تعرف الخادمة أن أمرها قد انكشف!!!.. وأثناء فقدانها لتركيزها .. تعرضت للحادث المروري الذي أثر على ذاكرتها .. وجعل الأحداث تتضارب في ذهنها لتظن أن الجريمة قد حدثت بالفعل وأنها هي من ارتكبتها!!!.

لأول مرة في حياتي أشعر أن للصمت صوتا يفوق الضجيج!!! .. عبارة متناقضة للغاية .. لكن هذا ما شعرت به حين رأيت صمت الجميع التام وعلامات الذهول التي سيطرت على ملامحهم!!! .. فراح الجميع ينظرون إلى (أسيل) التي راحت بدورها تنظر إلي بضياع حقيقي وعيناها تتسعان وهي تلتصق بخالها أكثر وأكثر .. فغرقت فجأة في

بكاء حار غير مصدقة أنها مرت بأمر كهذا وأنها نجت من جريمة قتل كانت سترتكب بحقها منذ ساعة فحسب .. في حين نظر إلي الضابط بإعجاب شديد أثلج صدري بحق .. وهو يقول مبتسما:

- هل استنتجت كل هذا وحدك يا دكتور؟!! .. كيف؟؟!.

أجبته بشيء من الثقة التي لا أملك منها إلا القليل مع الأسف:

- إنني طبيب نفسي يا حضرة الضابط .. أدرس وأقرأ في علم النفس منذ سن المراهقة .. وأفهم الكثير من أسرار العقل البشري .. لقد شدني كثيرا إصرار (أسيل) الشديد على أنها قد ارتكبت تلك الجريمة فعليا ودفنت الجثة في حديقة منزلها .. فسألت نفسي .. لماذا تتوهم شيئا كهذا؟!.. ربما يكون إصرارها على حدوث تلك الجريمة يتجاوز مسألة اختلاط الذكريات ببعضها كما قال لها الأطباء بعد تعرضها للحادث.. ربما تكون محقة ولكن ذاكرتها مضطربة وجعلتها تنظر للأحداث من منظور آخر .. منظور خاطئ .. أعتقد أن (أسيل) سمعت الخادمة تقول لعشيقها: ((أنا سأرتكب)).. ((سندفن جثتها في حديقة المنزل)).. وأسلوب المتحدث

جعلها تظن أنها هي من قالت كل هذا.. ولا أنسى أهم نقطة في القصة والتي أربكت أفكاري كثيرا.. وهي ادعاء (أسيل) في البداية أنها قد قُتلت طفلة!!!.. ولكن .. يبدو أنها سمعت الخادمة تتحدث مع عشيقها وتصف (أسيل) بالطفلة التي لا خوف من السيطرة عليها وقتلها كونها ستكون ضحية سهلة وهشة.. ربما هذا هو سبب ظنها أن جريمة القتل قد تم ارتكابها بحق طفلة!!! .. لحسن الحظ أن الخادمة وعشيقها من جنسيتين مختلفتين .. وكانا يتحدثان بالإنجليزية التي تفهمها (أسيل).. لتسمع وتعرف ما كانا ينويان فعله.

قلت هذا ثم أردفت بانتصار:

- لقد ظهرت تلك التساؤلات في عقلي فجأة وأنا أنظر إلى شاشة هاتفي النقال عندما رأيت رقم (أسيل) .. فقد اتصلت بي من قبل لتحديد موعد زيارتها بعد أن حصلت على رقم هاتفي من إحدى قريباتي .. المهم أن تلك الهواجس أصابتني بشيء من القلق .. فاتصلت بهاتفها النقال .. احم .. احم .. احم!!!.

سكت قليلا وأنا أختلس النظر إلى خالها بشيء من الإحراج .. ثم قلت بخفوت:

- اتصلت بهاتفها النقال بعد استنتاجي هذا للاطمئنان عليها والتأكد من خطأ نظريتي .. وإذا بالجهاز مغلق .. فبحثت عن رقم منزلها واتصلت بها بالفعل .. فكان الهاتف يرن دون رد!!! .. عندها باتت شكوكي تكبر .. إذ توقعت أن الخادمة ربما قطعت أسلاك هاتف البيت .. وإتلاف هاتف (أسيل) النقال كي تفسده .. وتعزلها بهذه الوسيلة تماما عن الخارج خوفا من أن تستنجد بأحد .. لتهيئ بعدها الجو بالكامل لعشيقها كي يدخل البيت ويقتل (أسيل) ويدفن جثتها في حديقة البيت الداخلية .. وسيملكان بعدها الوقت كله لسرقة مقتنيات البيت الثمينة ومن ثم الهرب قبل عودة صاحب البيت من السفر .. فلا يوجد بيت في (الكويت) يخلو من المصوغات الذهبية والمجوهرات .. لهذا على الأرجح اقترحت الخادمة على عشيقها أن يقوما بتلك الجريمة بعد أن رأت في بيت مخدومها تلك المصوغات والمجوهرات التي سال لها لعابها كما يبدو!!!.

انتهيت من كلامي .. ولم تنته نظرات إعجاب الجميع .. حتى إنني شعرت بنشوة هائلة وكدت أن أبكي تأثرا بنفسي ..

لقد مارست دورا بوليسيا مذهلا وأبديت ذكاء منقطع النظير لم أظن يوما أنني أمتلكه.

سادت بعد ذلك فترة طويلة من الصمت .. ثم .. اغرورقت عيناي بالدموع رغما عني!!!.. ليحيطني خال (أسيل) بذراعيه.. ويحتضنني بقوة وهو يقول بحماس شديد:

- لا أعرف كيف أشكرك .. لا أعرف كيف أصف عبقريتك.. لقد أنقذت ابنة شقيقتي بفضل ذكائك وحرصك .. إنك أحد أفراد عائلتنا منذ هذه اللحظة .. أرجوك لا تتردد لو أردت أي خدمة .. اعتبرني شقيقك الأكبر .. اعتبرني والدك .. اعتبرني .. اعتبرني ...

لم يجد ما يكمل به عبارته .. فاحتضنني مرة أخرى بقوة.. أما (أسيل) .. فقد كانت تنظر إلي بطريقة أخرى .. تنظر إلي بامتنان لا يوصف .. وبحنان .. و .. حب!!! .. كان كل شيء في عينيها يخبرني بذلك .. لكن .. لا يأتي الحب بهذه الطريقة يا عزيزتي .. صدقيني لو شعرت به فسأكون أول من يعلن عنه.

ثم .. فوجئت بالضابط ينهض من مكتبه وهو يقول:

- مع الأسف .. أكره أن أفسد فرحتكم جميعا .. لكن .. لا أستطيع اتهام الخادمة أو عشيقها بشيء مما قاله الدكتور .. فكل كلامه هو مجرد استنتاجات .. خاصة مع عدم تذكر (أسيل) ما حدث حتى الآن .. الجريمة الوحيدة التي لدينا هنا هي اقتحام عشيق الخادمة للبيت بمساعدتها .. خياراتنا محدودة كما ترون!!! .. بكل تأكيد سأقوم بحبسهما على ذمة التحقيق و ...

رد خال (أسيل) بغضب:

- ماذا تقول يا حضرة الضابط؟!!! .. أمامك جريمة واضحة هنا.

قاطعه الضابط بحزم:

- جريمة لم تحدث يا سيدي .. تذكر هذا .. الجريمة لم تحدث بعد .. ولا يمكن أصلا أن يعترف العشيق أو الخادمة أنهما كانا على وشك ارتكاب جريمة قتل .. سنحاول الضغط عليهما .. لكنهما لن يعترفا ويرسلا أنفسهما إلى التهلكة.. فعلى الأرجح ستتحدث الخادمة مع عشيقها عن لقاء

غرامي فحسب كان من المفترض أن يتم بينهما.. سنحقق معهما ونعرف ما ينويان قوله.. المشكلة أن حتى لو عادت ذاكرة (أسيل) إليها .. فلن يؤخذ بكلامها بصورة مؤكدة بسبب الخلل الذي أصاب ذاكرتها جراء الحادث .. لعل أقرب الخيارات هي ترحيل الخادمة وعشيقها إلى بلدهما والختم على جواز سفرهما بعدم العودة إلى (الكويت).

سكتنا طويلا أمام هذا الكلام .. وشعرت بشيء من خيبة الأمل .. كيف لم أنتبه إلى كل هذه النقاط؟!! .. لقد استنتجت الأصعب ونسيت الأسهل!!! .. فالضابط محق تماما .. ترى.. هل كان استنتاجي رمية بدون رام؟!! .. هل كان استنتاجي غير صحيح لكنه قادني صدفة إلى تسلل عشيق الخادمة إلى البيت؟!!! .. لا .. أعتقد أنني كنت محقا .. ولكن كشفي للجريمة قبل حدوثها هو ما أضعف التهمة بحق العشيق والخادمة!!!.

ظللنا نتبادل النظر إلى بعضنا .. قبل أن يقول خال (أسيل) مستسلما:

- الحمد لله على كل حال .. فقد نجت ابنة شقيقتي وهذا ما يهمني .. ستبيت (أسيل) في منزلي لحين عودة والديها ..

لقد طلبت منها ذلك قبل رحيلهما .. لكنها أصرت بعناد أن تظل في بيتها كون والداها سيغيبان لمدة يومين فقط.

قال هذا وهو ينظر إليها معاتبا .. فأطرقت برأسها في خجل.. ثم أحاط ابنة شقيقته بذراعيه .. وتوجه معها إلى بوابة الخروج وهو يلقي التحية علينا جميعا وينظر إلي نظرة امتنان أخيرة .. ولا أنسى نظرة (أسيل) التي توحي أنها لن تنساني وستظل تتواصل معي بشكل أو بآخر .. وهذا ما حدث بالفعل كما ذكرت في بداية القصة.

لقد اتصل بي أهل (أسيل) بعد عودتهم من السفر يشكرونني كثيرا على كل ما فعلت .. وراحت هي بدورها تشكرني كل مرة تزورني فيها في مكتبي وتنظر إلي بامتنان .. فكنت أبتسم بتواضع وأخبرها أن هذا من واجبي .. فمن المستحيل أن أترك جريمة قتل تحدث بحق فتاة بريئة .. حتى وإن ظن الجميع أنها واهمة.. حتى وإن لم تتأكد نظريتي حتى الآن لأن (أسيل) لم تستعد الجزء الخاص بذاكرتها والمتعلق بالساعات التي سبقت الحادث المروري .. إنها بالفعل جريمة ناقصة إن صح التعبير .. جريمة لم تحدث!!!.

وبعد .. لقد وصلنا إلى نهاية هذا الكتاب .. ولم يعد أمامي سوى أن أجمع أوراقي وأنام .. لكنها ليست نهاية مذكراتي بالطبع .. فما زلت في مقتبل العمر .. وما زلت أيضا أستقبل المرضى النفسيين وفي جعبة كل منهم قصة ما .. لكني سأنتقي القصص الغريبة فقط .. تماما كما فعلت هذه المرة .. ربما سأنشر لكم يوما جزءا ثانيا وثالثا من مذكراتي هذه .. وربما تكون الأجزاء التالية مرتبطة بالمراهقات أيضا .. أو المراهقين.. لا أعلم .. فلنترك هذا للأيام القادمة.

لقد حاولت تنويع القصص التي اخترتها لكم من تجاربي مع المراهقات حتى أرضي جميع الأذواق .. فقدمت لكم المشاكل النفسية في قصة (جدتي تخيفني كثيرا) .. تداخل عالم الأحياء والأموات (زوجي الميت يلاحقني) .. الاتصالات النفسية (ولَدي الحبيب) .. التشويق البوليسي (جريمة لم تحدث) .. تهيئوات وأكاذيب يظنها المرضى حقائق (أنقذوني من مذكراتي) .. وقصة اجتماعية بحتة تنتمي لواقعنا المفزع (هاربة).

آملا أن يحوز هذا الخليط على إعجابكم .. خاصة أنني حرصت على تغيير القالب في كل قصة منعا للملل.

لكن .. أبقى أطرح تساؤلاتي الدائمة .. أين موقعي من كل ما يحدث حولي .. إلى أي مدى سأتأثر بتلك الحالات التي تمر علي بين الحين والآخـر؟؟! .. هل أستطيع أن أعيش ككل الناس بعد كل ما مررت به وعرفته دون أن تصطادني الكوابيس كلما ذهبت للنوم؟!!.. هل أستطيع أن أتزوج وقد وصلت إلى مرحلة عمرية ينظر إلي من خلالها بغرابة كوني ما زلت أعزبا؟!! .. لا أعرف .. المشكلة أنني كلما عرفت عن هذا العالم وكشفت المزيد من أسرار البيوت .. كلما زادت مخاوفي من الارتباط .. كما أن تعلقي الشديد في عملي قد أنساني فكرة الزواج .. على الأقل حتى لحظة كتابة هذه السطور .. ربما تتغير الأمور في المستقبل .. ربما!!! .. فلننتظر ونرى.. هناك الكثير من الأمور المعلقة التي لا أملك إجابة عليها في الوقت الحالي .. لكني آمل على الأقل أن أعتاد تلك التجارب التي أمر بها بين الحين والآخر وألا تؤثر بي مع مرور الأيام .. تماما كما يحدث مع الجراح الذي اعتاد رؤية الدماء والموت وحالات الضعف البشري.

سأترككم الآن على أمل أن نلتقي مرة أخرى .. وبإصدار جديد.. وحالات جديدة .. حالات نادرة!!!.

الفهرس

1) مقدمة ضرورية 7

2) جدتي تخيفني كثيرا 17

3) زوجي الميت .. يلاحقني 53

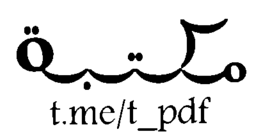
4) هاربة 103

5) ولدي الحبيب 125

6) أنقذوني من مذكراتي 155

7) جريمة لم تحدث 187

8) الخاتمة 228



للتواصل مع المؤلف

Email : **kuwaiti27@hotmail.com**

Twitter : **@Abdul_Alrifaee**

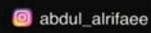
Instagram : **abdul_alrifaee**

Snapchat : **alrifaee**

Youtube : **www.youtube.com/aalsayed1973**



ما هي مشاكل المراهقات في الكويت؟! .. هل هي شبيهة بالمشاكل المعتادة التي نتعرض لها جميعاً؟! .. أم أن لهن أسراراً مخيفة لا يعرف عنها الكبار شيئاً؟!! .. أطرح هذا السؤال بسبب عملي كطبيب نفسي .. وبسبب الحالات التي تمر علي في المستشفى .. ففي كل مرة تقريباً تجلس أمامي فتاة في سن المراهقة .. أجدها تروي لي أحداثاً مذهلة لا تصدق عن حياتها الشخصية .. وأجد في جعبتها أسراراً سوداء يقشعر لها البدن .. فقررت أن أجمع تلك القصص لأنشرها لكم .. عالماً أنها ستجعلكم تفكرون في تفاصيلها حتى بعد الانتهاء منها .. لأننا نتحدث هنا عن حالات غريبة لم ترد معظمها في قاموس الطب النفسي .. حالات نادرة !!!.

@Abdul_Alrifaee  abdul_alrifaee alrifaee



w.novapluskw.com @novakw

